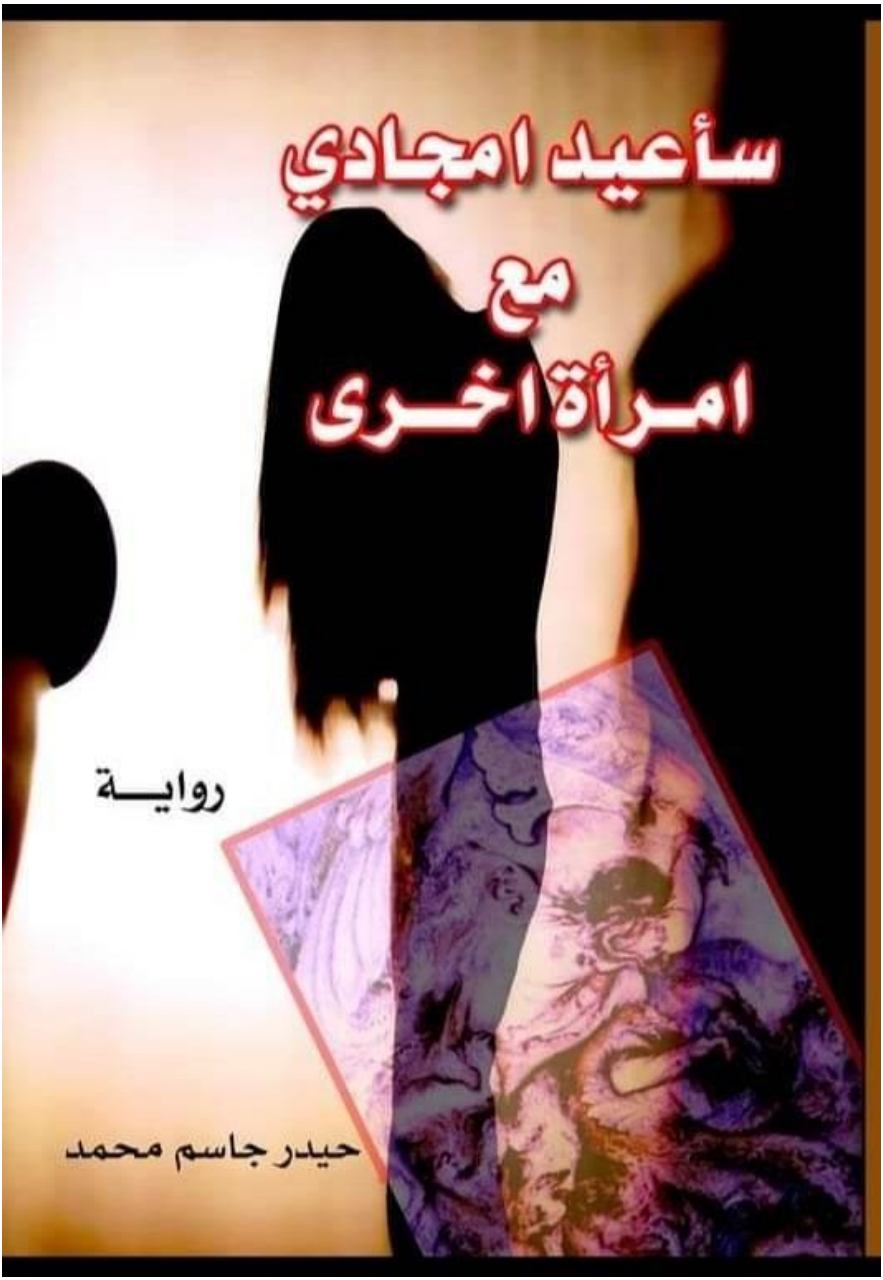
سأعيد امجادي
مع
امرأة اخرى
رواية
حيدر جاسم محمد

سأعيد أبحاثي

مع

امرأة أخرى

رواية

حيدر جاسم محمد

الإهداء..

إلى كل من ساهم بمساعدتي في انجاز هذا العمل المتواضع..
إلى جميع الإخوة والأصدقاء وعائلتي..
وبالخصوص من أخذ بيدي لمواصلة هذا العمل
جزيل الشكر والامتنان.

على الرغم من أني لم أفتقد الحب أو الحنان أو حتى الاحترام مع زوجتي الأولى.

ألا أن ما يدفعني هو إحساس فياض بالحب نشوانٌ بالمشاعر الجياشة اتجاه عشق جديد، أسافر به إلى عالم آخر.

عالم طالما كنت أتمنى العوم في بحره حد الغرق. وإن قيل بأن كل النساء سواسية، وكلهن ما أن يصوبن سهام لحاظهن صوب أي فتى، حتى يردينه قتيلا، بالرغم من رقة حسنهن وتفاوت طباعهن، فهن قاتلات.

و أن كان يتمنى صاحبي سرمد الذي اخبرني حكايته بدقة متناهية دون أن يترك أية شاردة أو واردة ألا حكاها ألي بأسلوبه الشيق المعتاد، قائلا: أني أتمنى امرأة أكثر جمالاً وصغراً وأنوثة، فقد بتُّ اختلس النظر لكل امرأة تمر من قربي، أن لم تكن جميلة الوجه بهية الطلعة، فقد يكون في تفاصيل جسمها ما يسحرني ويهيجني ويحرك فيّ ذاك الفضول المندفع الزائد صوبها، فأتكلم بلغة السوق مرة، وتارة بلغات لم افهم منها غير أني أثرثر بلا وعي أو صواب، أشعر باني

عاشق طائش ومراهق بالغ، ومبالغ في تصرفاتي واندفاعاتي إلى حد الجرجرة والمصائب والويلات.

وأحس بأنني أخوض تجربة مريرة، ليس ككل التجارب السابقة وحباً لا على التعيين، وطيشاً وفيضاً من حنين يشدني لكل غاد ورائح ويطفح فيّ كالدمامل والنتوءات الجلدية في وجه المراهقين.

أبداً لم أعش ذلك الكبت الذي عاشه المحرمون عشقاً أو جنسياً، فقد تيسر لي أن مارست ما لم تتح لأقراني ممارسته، بسبب وظيفتي المبنية على السفر الدائم إلى اغلب دول العالم.

وأن كان زواجي هو واحد من كل الزواجات المعتادة في ديارنا الذي لم يكن لنا به من خيار سوى الموافقة لرغبة وإلحاح الأبوين وتشجيع الأقربين، وسرعان ما تترتب مثل هذه الأمور ونجد امرأة بين أحضاننا لا يحق لنا أن نعارض أو نرفض أو نستنكر، شأن الساسة اليوم بمقدار ما علينا أن نرحب ونمارس الحياة الجديدة بأجمل حلة ومتعة لم نستفق منها ألا وأطفالنا تسرح بين مراعينا، وهذا ما اعتاد عليه السلف الصالح والطالح؛ ورحم الله زمان وأيام زمان.

اليوم جاء سرمد بعد أن تخطى الأربعين، يضحك على (ياس خضر) وهو يندب حظه بأغنيته (عمر وتعدى الثلاثين لا يفلان عمر وتعده وتعديت) ويصفه

باليائس، وكأن سن الثلاثين هو بداية العجز والضعف وخور العزيمة.

وأن الأربعين هو الدفعة الجديدة من الحياة وهو الأمل النشط الذي يجعلك تتحرك سريعاً لتلافي ما فاتك من ذاك الزمان، والعمر الذي انقضى في تحقيق رغبات الأبوين أو أولياء الأمور أياً كانت درجة قرابتهم إليك.

ماذا أن كانت زوجتك وأطفالك الذين أصبحوا اليوم يافعين ولربما بعضهم متزوجون، يخالفونك الرأي ويمانعون أن تدخل حياة جديدة هم المتضررون الأوائل فيها، خاصة وهم يمثلون جزءً لا يتجزأ من حياتك.

سرمد يؤكد بان هناك معارضة قوية وقد تنشب معركة على كافة المستويات، وأن موقفه ضعيف إزاء هذا الوضع وهو يحاول أن يصنع المستحيل لتحقيق رغباته الجامحة وأن تعسّف بقراراته، واقفل راجعاً بان العشرة لا تهون إلا على أولاد الحرام، وانه يأمل الكثير من عائلته التي قضى بينهم جل عمره وقوته وشبابه، وخاصة وهو يأمل من أولاده الذكور بل يعتقد جازماً بأنهم سنده وعونه في وقت كبره وعجزه وهم من يقفون عند رأسه في لحظة الوداع الأخير.

وانه لا يحب أن يتطرق لمثل هذه المسائل كونه عاشق للحياة وروحه تواقة إلى الشباب والحيوية ويحس

أن أمامه الكثير الكثير ليتمتع به والحق انه يسعى للتمتع بالحلال متخطٍ مواقع الحرام والشبهات.

وهذا ما جعله يعيش حالة المد والجزر في آن واحد، فالحلال متاح بما هو متاح في العلن ودونه باطل وحرام، وأن أي حلال بالسر فهذه ممارسات لا تكاد تفرق عن الحرام بشيء وأن كان كل شيء موجود في زماننا من الزواج بالسر والمتعة وما إلى هنالك من المباحات بالتراضي، إلا إن كل ذلك لا يخلو من تعقيدات ومخاوف في زمن تشابه المسميات.

سرمد لا يشكك البتة بأنه من ضمن قائمة الأجيال المغلوب على أمرهم، الذين اخذوا على حين غفلة، حتى وأن كانت نساؤهم جميلة فهي بالتأكيد لا تشبه نساء اليوم، فاليوم يعد المكياج واحداً من ابرز عوامل التجميل والذي يضفي هالة من الجمال ولمسة من البراعة والفتون فضلاً عن العطور المستوردة التي تحرك المشاعر أيما حركة، تهيج به كل جوانب الحياة، أما الملابس فهي بحد ذاتها فن له مدلولاته الساحرة وهو يتلاعب بين أمواج الألوان، تلك الأطياف القزحية التي تشكل هرماً من الإبداع المتجانس في تركيباته مع تقاسيم جسد الأنثى المتوهجة نوراً ونار اً، والأنكى من ذلك اللمسات الفنية المبدعة في صبغ الشعر وقصاته الجديدة، وعدسات العيون المختلفة الألوان، فضلاً عن

زيوت الرشاقة ومنشطات الترائب، وإطلاء الزندين والخصر بالمكبر والمصغر حسب الاختيار وإبراز الفخذين والوركين بالملابس الضيقة، وما إلى ذلك.

أما نساء ذلك الجيل، ولا أعني إطلاقاً النساء بعينها بمقدار من وقع عليها الاختيار، حتى أن الكثير من رجال ذلك الجيل ممن ما زال يعتقد بأنهم حصلوا على نسائهم عن طريق القرعة، ولا شك أن مثل هذا الوضع ينطبق عليه المثل القائل ((أعمى يقود بضرير)).

يحس سرمد بان كل ما يختلجه من اختلاجات حية وحقيقية نابعة من صدق أحاسيس ومحرومية عاشتها أجيال، منهم من اقتنع بنصيبه ورضا بقدره وحمد الله وأثنى عليه وهو لا يفكر قطعاً بان يأخذ نصيبه ونصيب غيره.

بينما يفكر البعض وهو السواد الأكبر بان يأخذ حياته وحياة غيره وحياة كل من حوله، وهذا الإحساس قد يكون وليد الأنانية والجشع وقد يصل إلى درجة اللؤم، لكنه يظل بالتالي وليد المحرومية.

فهناك من يتمنى أن يموت زوج صاحبته أو جارته أو قريبته الجميلة ليختلي بها حلالاً كان أو حراماً، ناهيك عمن يتمنى أن تموت زوجته التي تلازمه من يوم دخولها القفص أياً كان نوعه ذهبياً أوحديدياً متصدئاً إلى حفرة القبر ليستبدلها بفتاة ساحرة جديدة، وأن كانت

لعوباً، المهم أنها تملأ عليه فراغات لكثرما فكر بإملائها لكن من دون طائل ولا جدوى.

أن من عيوب سرمد الواضحة، هو منفتح العين والحلق والقلب ينظر لكل من هب ودب الغث والسمين، نعم وأن كان بارع التمييز وحاذق النظر يعطي لكل واحدة تسميه خاصة حسبما يرى دون زيادة أو نقصان، والنعوت عنده تأتي مطابقة للصورة دون تزويق أو تشذيب، بعبارة أدق، دائماً ما كان يردد: (هذا الجود من الموجود) يعني أن كل النساء جميلات أن لم تكن بعينه ففي عين غيره، والحق من ذا الذي يطولها هي أو غيرها.؟

أقر سرمد إقراراً وجدانياً بان هناك ثمة مشاكل وعراقيل تعترض طريقه، بداية بالسكن، وهذه ظاهرة مستفحلة في عموم البلد، لكن يمكن تفاديها إذا كان بإمكان العروس الجديدة أن توفر له الملاذ الآمن كقطعة ارض تعود لها أو لخاصتها يمكن استغلالها في بناء حياتها الزوجية الجديدة.

أما المشكلة الثانية وهي الدخل المحدود الذي يكاد أن يقوّت عائلته بالعافية دون أن يفيض منه شيء، وكذلك كانت الحلول جاهزة عنده، فهو لم يفكر أن يقدم على خطيئة أخرى، بمقدار ما هو عاكف على دراسة موضوعية لزواج استثماري، فلابد أن تكون الزوجة

الجديدة من ذوي الرواتب الجيدة وان تكون من أصحاب الشهادات العليا ليزداد بذلك مدخوله المادي، فهيهات أن تتكرر الخطيئة السابقة، والمؤمن الحق لا يلدغ من جحر مرتين.

أما اشد المشاكل التي تعترضه وتوقفه مذهولاً أمام حقيقة ليس بالإمكان التغافل عنها وهي مدى قدرته على ممارسة الحب ـ كما يقول الإنكليز ـ وهذه من اشد المسائل الملحة، فهل هو قادر معنوياً ونفسياً على تلبية احتياجات المرأة الجديدة التي عاشت فترة طويلة من الحرمان، وسرعان ما تلج في عالم آخر مليء بالمغامرة والاشتباكات المسلحة، حياة مجردة من الخوف والخجل، كل ما فيه نزقٌ واستهتار بالمثل والقيم.

استوقفت سرمد مدى أهمية هذه الحكاية وراح يتظاهر بالحكمة والشجاعة وعلى حد قوله إن الرجل قادر على اختيار الوقت وكيفية تمضيته، أو بالأحرى أن بيده مفاتيح الحل والعقد وهو حر في اختيارسلوك أيسر الطرق وأسهلها وصولاً إلى الهدف.

وماذا عساها أن تختار، وما هي مطالبها الزوجية الجديدة وهل من شروط مسبقة تفرضها سعادتها عليه؟!

لا يؤمن سرمد بأن تشترط عليه القادمة الجديدة أية شروط وان كانت قيد أنملة، بل العكس هو الصحيح،

خاصة وهو سيحلُّ لها أكبر مشاكل حياتها العالقة.! وأما عن تعامله معها فهو لا يخالف الشرع ولا يجانب المتعارف عليه بين متعددي الزوجات، فلها مثل ما لضرتها، وان كان هناك تفاوت فقد تكون للزوجة الأولى حصة الأسد منه لما لها من مكانة وأطفال وبالتالي هو تقدير للعشرة الطويلة.

أما الجديدة فبالرغم من المواصفات التي تحظى بها ألا أنها تظل بعنوان رغبة طائشة، أو إكمال لعاطفة مكبوتة، وجبر لأجنحة متكسرة، وغير بعيد أن يكون الرجل هو المتفضل في إسعاف تلك المرأة الغارقة في بحور العنوسة والحرمان وانتشالها من الغرق والطوفان العارم الذي يبعدها عن شاطئ الأمان.

أو قد تكون كأي كتاب في رفوف الإهمال والنسيان، وهو القارئ الوحيد لصفحاتها وترجمة أفكارها، ومداعبة خلجاتها بعد أن ظنت كل الظن بان لا متنفس في زمن يقال فيه أن كل عشر نساء وراء رجل واحد.

لكن سرمد بالرغم من إيمانه المطلق بتفنيد صحة هذه المقولة، ظل يعلل أمانيه بان كل شيء جائز.

**

الزمن هو الزمن دورة عجولة بلا توقف، بالرغم من أن هناك من يستبطأ الأيام كونه أشبه بالسجين الذي يحاول ملياً أن تنتهي فترة محكوميته، ولأن الزمن متهمٌ دائماً بأنه من حمل الكثير الكثير من المآسي والويلات للعالم عموماً وللعراق على وجه الخصوص، لأن العالم بات يربط الأحداث بالوقت متجاهلاً الأسباب الجوهرية فقد ظل العراق مراهناً على تجاوز التحديات الخطيرة التي تحيط به، مبتعداً عن عالم السياسة قدر الإمكان رغم أن هذا العالم متوغل في يوميات الفرد العراقي بكل تفاصيله، فهو ما زال يحلم و يأمل ويعشق ويمارس حياته الطبيعية رغم ضراوة الظروف وقساوة العدو.

كان سرمد مبتهجاً بالانتصارات الساحقة التي حققها على الصعيد المادي، فراتبه الشهري كان مجزياً بعد احتساب مدة الفصل خدمة فعلية، فضلاً عن أن دوامه يوماً واحداً في الأسبوع بسبب توجه الحكومات الى الاستيراد بشكل يشل كامل القطاعات الانتاجية، فضلاً عن البطالة المقنعة التي استعصت على الحلول.. وهو يزاول عملاً آخر في محل بيع وتأسيس الكهربائيات وهذا المحل عائد إلى أحد أقاربه، يتقاضى منه كذلك راتباً شهرياً جيد المدخول علاوة على شطارته في البيع لبعض المواد الخاصة به وفق اتفاق خاص لا يتجاوز بموجبه على مواد ورأس مال المحل.

وهو يداوم طيلة أيام الأسبوع، ويجد في هذا العمل حلاوة الاستثمار والربح، ناهيك عن الغبطة والسعادة التي يشعر بها في تعامله مع الزبائن، خاصة الجنس الناعم الذي يرتاد مثل هذه المحلات إلا اللائي يبحثن عن فرصة للصيد والغنيمة.

لم يكن سرمد صيداً سهلاً للواتي يرومن الصيد في الماء العكر وهن يرجون ألا يفلت من شباكهن أحد، فقد كان متحدياً بارعاً في رفض هذا النموذج من النساء، رغم ركاكة قلبه واضطراب أحاسيسه لم يدع مجالاً ولو ضيقاً أو كوة صغيرة لولوجهن إليه.

بينما كان يرجح أن يلتقي بفتاة أو امرأة، والثانية من باب التفضيل، متوازنة، ولطيفة، لم تكن من بائعات الهوى أو المنخرطات في الأسواق.

امرأة همها الأول أن تجد من يحميها ويضمها إليه تحت غطاء شرعي، يتقدم لها بكل أدب من باب بيتها، وتخرج معه مرفوعة الرأس، لكنه اشترط على نفسه بل وعاهدها أن لا يدخل حياة جديدة بدون قصة عشق وهوىً وغرام، فهو بأمس الحاجة إلى من يتغنى بها حباً وطرباً، وينام بين ثناياها طفلاً وديعاً تحضنه بكل جوارحها ويشدو بها بخفقان قلبه.

امرأة تحمله إلى جزر الهدوء والسكون بعيداً عن ضوضاء التنافس المقيت ولغط السياسة الفاسدة، رجل

بحاجة ملحة إلى أن يحلم ويحلم ويحلم وليس بوسعه أن يصحو مما هو فيه، ما كان بوده أن يستبدله بواقع مرير طالما ندد به وأعلن رفضه مراراً وتكراراً دون أن يسمعه أحد أو يقبل بشكواه أو حتى يلتفت إليه مدعٍ سلام.

كان سرمد نموذجاً أخر لرجل لعوب فهو ما أن تجامله أية امرأة حتى يفتح لها قلبه ويحتضنها بأحلامه الواعية نائماً كان أو يقظاً ينجرُّ معها متدحرجاً أعالي الجبال لينفذ إلى قلبها ويمسك بدفة القيادة، ويعوم معها بحراً لجياً من المخاطر.

وما أن يصحو من أحلامه الدافئة حتى يتقمص لباس التقوى والورع لفترة قليلة هذا إذا ما اندفعت امرأة أخرى أجمل أو أقبح لتتسلق بلسانها جبال عصمته ووقاره، وتهد عالمه الواهي وتطيح بكل أبنيته الخيالية التي شيدها بدفء الحب وسحنة الحنين.

هكذا يمضي يومه على نغمات تخترق عالمه الهش وحصانته الزجاجية على أمل أن يشيد حباً من فولاذ.

وهذا الأمل الواهي يتقد عند سرمد كالجمر مرة يخبو وتارة يتوهج مع هبوب أي ريح جديدة شمالية كانت أو شرقية، ويعيش لحظات انتعاش ومتعة، حتى عندما يأوي إلى فراشه وبينه وبين زوجته مسافة قاب قوسين، فهو لم يجدها سوى جثة باردة، جمعه القدر وإياها أما

تأخذ بأيديه إلى القبر أو يأخذ بأيديها حتى تزف ساعة الحسم.

وكونه يعيش لحظاته نشواناً بخمرة هذا الجمال الأخاذ وذاك، فهو غير مستعد أن يبدلها بأي كلام فارغ تثيره زوجته أو أبناؤه، وفي كل مرة يحمد الله كونه لم ينم على السرير لأنه معرض للسقوط، فأحلامه تنتشله من توازنه واستقراره لتسبح به في فضاء الخيلاء، ومن غير المعقول أن يعيش كل ليلة على هذه الحالة، وهو من النمط الثرثار أو بالأحرى الذي تفضحه تصرفاته، ولم يستطع أن يكبح جماح أشواقه العارمة، فراح يبحث في أمهات الأغاني عن أغانٍ لأم كلثوم أو يلجأ إلى سعدي الحلي وياس خضر، وينام على صوت مليء باللوعة والشجن، ولأن ظروفه غير مهيأة لممارسة الجنس مع أهله لأكثر من سبب قد تعود لضيق البيت واجتماع أكثر أبناءهم معهم في غرفة واحدة، حتى وان كانت هناك غرفة أخرى فأن أبناءهما يتخوفون أن ينامون بها بسبب تعلمهم منذ الطفولة النوم مع والديهم، فضلاً عن ممانعة الزوجة التي كثيراً ما تعاني من أعراض التعب وعدم الرغبة وتتعذر بالأبناء و تبرر بالكبر والانزعاج والملل؛ نساء تحب المطبخ أكثر من الفراش.. كذلك كان سرمد غير مهيأ نفسياً لأكثر من سبب يرتأيه لكنه يظل مصراً ومكابراً على حاجته

للمتعة الجنسية وأن كان داخله يرفض ذلك بسبب الاعتياد على ذات الوجه أو بالأحرى لان الظروف غير متاحة ليتمكن من المداعبة الطويلة واللعب كيفما شاء في طاولة البليارد الذي كثيراً ما ينعتها بهذا الوصف.

وكما أسلفنا أن سرمداً واحد ممن لم يستطع الحفاظ على أسراره فلذلك كانت زوجته وعائلته بالكامل ملمة بكل قصصه الغرامية ممن حكاها نصاً أو أضاف عليها لمسات التشويق، ودائماً ما يمثل دور البطل المغامر رغم أن الكثير من القصص الغرامية تبوء بالفشل، ولان العرب كثيراً ما تجعل من البطل بطلاً متكاملاً يحمل كل الصفات الحميدة.. كان سرمد يصور نفسه بذات الصورة، فهو لم يخسر أية معركة يقودها ضد خصومه، ودائماً ما يربح الرهانات وان الفتيات تصطف عليه بالطوابير، وهذا خلاف الواقع مهما علا نجمه وابتسم الحظ لطالعه.

فكانت أمه فخورة جداً بان يكون ابنها جاداً بالزواج وذلك نكالاً وشماتة بزوجته بسبب الخلاف الدائم بين العمة و(الكنة) وتجد الأم أن أبنها لم يكن رجلاً عليه الاعتماد ما لم يتزوج بامرأة شابة جميلة ليغيظ زوجته وينتقم لأمه.

بينما كان رأي أبناءه ذكوراً وإناثاً رغم كونهم يافعين مخالفاً لرأي والدهم وجدتهم، وان كانوا غير مستبدين برأيهم، وقد يتماشون مع رأيه إذا ما أصر على ذلك لان الأمر يتعلق به بالدرجة الأولى، وهذا نوع من حقوقه الشرعية، لا يحق لهم التدخل بها من بع قريب أو بعيد.

والحقيقة أن هذه الأسباب وغيرها من مدعاة خراب البيوت، فالرجل الذي يريد أن يتزوج لابد أن يكون متمكناً ميسور الحال عنده بدل البيت بيوت يمكن من خلالها أن لا يضّيق على عائلته وأبنائه، والجميل أن يكون صاحب عذر شرعي كالذي زوجته عاقر أو مريضة على وجه من الوجوه أو متوفاة وهذه من الحقوق التي لا اعتراض عليها البتة، وان كانت حقوق الرجل أكثر بكثير من أن تحصر بمجال ضيق حسب الأهواء، لكننا نؤكد وندعم فكرة الظروف المتاحة التي تمنحه حرية الاختيار ومساحة تذليل المعوقات وكسر الحواجز ـ هكذا كان رأي ابنه الكبير.

فالإنسان في مجتمعاتنا عندما يتزوج تقفل حياته على اتجاه واحد تتعلق بإسعاد الزوجة ومن ثم السعي الجاد في معيشة الأبناء وإيصالهم للمستوى المطلوب اجتماعياً، وليس كل الأزواج من يطبق هذا الرأي وان اعتمده سلفاً، فما يكبره الابن قليلاً حتى يجعله ساعده الأيمن فيضيع في الشوارع والأسواق للبيع والعتالة

والحوذية هذا إذا ما كان الأب صاحب عمل حر فيأخذ بأيد أبنائه تباعاً في العمل معه، وحسب مدخول وارداته فقد يتركه أحياناً ليجمع بين الدراسة ومزاولة العمل، فضلاً عن أن هناك من الأباء المتزمتين الذين يرون الدراسة مضيعة للوقت بسبب الظروف السياسية التي شهدها البلد طيلة ثلاثة عقود من الزمن، ما عاد بالمحصلة النهائية أن أفل جيل بأكمله بسبب رعونة الأباء واستبدادهم، علاوة على صنيع الساسة وفسادهم، بالكاد أن البلد مرّ بحالة استثنائية قلما شهدتها بلدان المنطقة، فظل بذلك ضالعاً بكل عناوين التيه والحرمان، وله النصيب الأوفر من الهزائم والانتكاسات التي مني بها ردحاً من الزمن، ولا زال يعيش إرهاصاتها رغم أن بذور التغيير التي غرست هنا وهناك ، لم تجد أرضية مناسبة وان وجدت فهي لم تجد الماء النقي والهواء والنور الذي يساعدها على النمو، وبالتالي تظل الشتلات وان كانت غريبة نوعاً ما فهي تحظى بمن يرعاها ولو على سبيل إبقائها شتلة للزينة إذا لم تكن للمنتوج.

لم يسترح سرمد بعد ولم يحس بان الظروف متاحة أو مؤاتية للإعلان عن بداية حياة جديدة وان ما يخوضه لم يكن سوى معركة مرهونة بالفشل للأسباب المحيطة به، والتي كثيراً ما تثبط عزيمته، وتعيق مسيرته، بل

وتدفع به إلى توهين نواياه، وتسفيه مبتغاه خاصةً انه متأكد من ضعف استعداداته من شن أي هجوم مهما كان نوع الخصم، كونه غير مستعد أساساً لبناء أية حصون دفاعية يصد به الهجومات المباغتة التي قد تشن في حال اتخاذه لأي قرار جائر بحق زوجته.

لكنه سرعان ما عاود التفكير ونفض عن نفسه غبار اليأس، وراجع حساباته ووجد من العزيمة والتصميم على آرائه واتخاذ قراراته الرجولية في خوض حياة أخرى مدروسة المعالم، وقد تكون بذلك الخطوة الأولى على سبيل الانفراج مادياً ومعنوياً من حياته اليوم.

**

لم يكن سرمد ملاكاً طاهراً ولا ولياً صالحاً بقدر ما كان أنساناً تختلجه الأحاسيس الفياضة أو تعتريه النزعات الأنوية وتغلب عليه الصراعات الغرائزية، وهو كأي إنسان ميال بطبعه للعيش في كنف من يحب متماشياً مع الرغبة العارمة والعاطفة الجياشة التي خرجت به من فلك المحافظين إلى عالم الانفتاح، منعطفاً على عالم الشباب مبرراً ذلك بزمان المحرومية، واليوم سمح له الزمان بان يأخذ حقه بأثر رجعي، ويعش حياته على أكمل وجه.

والحق أن الرجل يحاول التماشي مع الشرع، وان اختلف في طريقة تسويغ بعض الذرائع الشرعية التي تظل كلها أشبه بمجموعة حيل قد تقوض أعماله الحقيقية، وتنهي بذلك كل مدخراته الأخروية، لكنه ظل مصراً على أن يكون صاحب خط نظيف لم يرغب في تلويث ما بناه، خاصة وهو ممن عاش فترة هجرة وجهاد طويل ضد النظام الحاكم، ومازال يعتقد بأنه صاحب رصيد أخروي، لا غبار عليه، فضلاً عن كونه صاحب نوايا حسنة، وتصرفات حميدة، وان غلبت على أعماله نزعة العشق المتأخر، والنظر للمرأة التي باتت ملفتةً للنظر لأكثر من سبب، وان كان يقال عن المرأة كلها عورة في السابق، فلا أدري ماذا يقال عنها في اللاحق، وهي تصطف مع الرجل في كل الميادين، ومنهنّ من وصل بهنّ الحال إلى أن يصبحن نوابغ، أما الجمال فبالتأكيد هو لم يشبه الجمال السابق، فاليوم طغت صبغة الإغراء بشكل فج حتى أصبحت المرأة مثيرة للفتن، فالملابس والمكياج، والحركات والتصرفات، وتحصنها الثقافي كل ذلك مدعاة للتهييج، وان من قال بعكس ذلك فهو لاشك ممن يغالط نفسه أو انه مصاب بعمى الألوان.

أن سرمداً يتمتع بلسان جميل وبيان، وهو صريح إلى حد كبير ناهيك عن نظرته الفاحصة للمرأة، فسرعان ما

يشخص هذا الجرم المهول، المتلفع بالعباءة الفضفاضة والبراقع، وان كان هذا الزي الجديد القديم بحد ذاته زي أغراء لأكثر من سبب كون إبراز الرموش كأنهن نبال سود والعيون الواسعة التي تحتمي بهن كأنهن بحور متلألئة، علاوة على الملابس الضيقة التي تبرز من خلالها جل المفاتن، وهن يمرن بين البسطات المكتظة والأسواق الضيقة وتزاحم المارة والعربات.

رغم أن الكل واقف في مكان عمله ألا انه سرعان ما يبدي برأيه ويدلي بدلوه في سجال ملاحظاته، مرة بطريقة ساخرة وتارة بطريقة شعرية ساحرة، يجسد به معالم أنثى من تحت الخباء.

سرمد من بين هؤلاء الباعة ما كان ليتأخر في إبداء رأيه وأن كان في أوج التعامل مع الزبائن خاصةً في حال مرور فتاة أو امرأة بارعة الجمال ما يدعو إلى تشكيل ضجة كبيرة وتغامز طرفي السوق في إشارة من أول السوق تأتي على شكل صافرة أو صفقة أو حتى صوت غريب مألوف لدى الجماعة ومتعارف عليه، وأحياناً يقف الحوذي أو العتال رغم انه تعبان ومنهك القوى ليصرح بعدة كلمات يبديها بالثناء على هذا الجمال، وينتهي به بالسباب لنفسه أو لأهله وأحياناً للظروف السياسية وقد يصل به الحال إلى درجة الكفر.

اعتاد سرمد على مثل هذه المواقف يوميا، ولكثر ما ضجر من ندب الحظ والتأثر السريع بكل غاد ورائح، اخذ يتملص أحياناً بالقراءة وأحياناً بالحكايات الطويلة مع أصدقائه القدامى وأصدقاء الهجرة الذين اعتادوا الجلوس عنده في معظم أوقات فراغهم، لكن كل ذلك لم يسعفه أو يشفع له بالتخلص من حالات المغازلة أو التكلم بهذا المضمار.

يشعر سرمد في اغلب الأحيان بالفراغ وخصوصاً عندما يكون في البيت فهو يتمنى أن يغازل زوجته، ولكن هناك أكثر من مانع ابتداءً بأمه التي تكره زوجته ومروراً بأولاده اليافعين الذين سرعان ما يستهجنون مثل هذه المواقف وانتهاءً بزوجته التي تغلق جميع منافذ الحديث بهذا الصدد.

وان كلامه مع أبنائه أياً كان فهو صرف للوقت أو ولوج في المشاكل والطلبات التي لم تنتهِ، والاقتراب من أمه فهو اقتراب من أفعى قابعة بجحرها التي سرعان ما تنهال عليه بالذم والتقصير وتكيل له أنواع التهم الصحيحة والباطلة، لم يبقَ أمامه سوى القعود أمام التلفاز فهو من محبي أفلام الاكشن الأمريكية خصوصاً ومن ثم الأفلام الهندية، وهذا غير مسموح له بالبيت طالما أن البنات ينظرن إلى التلفاز، فان هذه الأفلام محرمة، وممنوعة بشكل قطعي لأنها أفلام إثارة،

خاصـةً أن البيـت متمركـز علـى مشـاهدة المسلسـلات الخليجية بالذات والمصرية بتحفظ، كان لـ سرمد وجهـة نظر مغايرة في ذلك فهو يجد أن الأفـلام الغربيـة تـتكلم عــن حقــائق بعيــدة عــن العاطفــة بعكــس الأفــلام والمسلسـلات المصـرية التـي تعنـى بالجانـب العـاطفي للاسـتهلاك والكسـب المحلـي، فـي حـين أن العواطـف عندنا محض كذب بعيدة كل البعد عن الواقع المعاش.

ظل سرمد محبطاً إلى وقت طويـل وهـو ينشـد حيـاة جديدة تنعم بالتفاهم والوفاق يحظى بها إلى صـدر دافـئ بالحنيــة والرقــة ولســان ينهــال عذوبــة وإيجابــاً، امــرأة تشـاركه متعتـه التـي يصـبو اليهـا ويتمناهـا فـي نومـه ويقظته في مأكله وملبسه، والأجمل فـي ذلـك أن يجـدها محاورة بليغة تلم بكل تفاصيل الحياة، متفهمـة لمـا يقـدم عليه الزوج ويطلبه بإلحاح، فضلاً عن رغبة الرجل بان يجد في المرأة روح الدعابة والشراسة معاً، فـالأولى أن تدب به روح الأمل والفكاهة لتعالج بذلك كل مشاكسـات الزمن العصيبة والألم والقسوة، وفي الثانية يجدها امرأة ذات كرامة وقوة تدافع عن نفسها في خروجهـا للشـارع الموبوء باللغط الباطل والنظرات الطامعـة، وتكـبح كـل ألسـنة الاسـتحقار والـذم التـي يمارسـها الـبعض عمـداً للانتقاص من الأخيار الذين يتحاشون شرار القوم.

يعتقد سرمد بان الرجل مليء بالمشاعر العشقية إلى درجة انه واحد ممن يتصفون بأسمى مراتب الحب، وهذه المشاعر تبحث عن فراغات تنتظر الإملاء كونها كالأرض الجدباء العطشى التي تنتظر الارتواء، فان لم يجد في زوجته جهاز استقبال لإرسال موجاته الأثيرية، فبالتأكيد سيبحث عنه في أماكن أخرى.

فالرجل وأن كان ما كان من صفاته الحميدة الذي يتحلى بالحزم والصبر، ففي الحب تلغى هذه الصفات وتتحول إلى صفات هي للذم أقرب منها للمدح. وما الداعي إلى الصبر والعمر أضيق من اللحد، سرعان ما تذبل شموعه وتنطفئ، فنحن في موسم الذبول، فهل نقوى على تحدي هذه الخلجات القاتلة التي تدب فينا وهي تعزف أنشودة نهاية المشوار.

كل الناس بإمكانها أن تحلم، وتحلم ولا شيء يمكن أن يعيد لك الشباب والنشاط سوى الحب، فمن يا ترى يستطيع أن يركن هذا النشاط وتلك الحيوية وراء ظهره ويقعد على فراش الموت ينتظر أوامر السماء، بالكاد لا أحد يفكر هذا التفكير ولا يتمناه ولا يرضى أن تتسلل مثل هذه الأفكار إلى نفسه.

كان يحكي سرمد مع صديق له حديث الهوى ولوعة الجوى وتباريح الشوق وهمسات العشاق، وكان الصديق يثني على من يؤمن بتعددية الزوجات، بل

ويُنفّذ لا أن يقعد يثرثر حدّ الصياح واللجبة.. فقد تحسس سرمد شيئاً من الإهانة في كلام صديقه، وأنه يعنيه بالذات لأنه طالما ثرثر ولغط كثيراً في هذا المجال، لذا راح يؤكد لصاحبه بضرورة دقة الاختيار، وان تتوفر بها جميع الشروط التي وضعها ابتداءً في اقترانه بأية امرأة جديدة.

ما حدا بصديقه أن يخاطبه بنوع من الاستهجان والازدراء: كأنك تعني بان تصطف النساء عليك طوابير ولك القرار في الرفض والاختيار.

سرمد يقر بان النساء أشبه بالطوابير وهذه حقيقة اخفاها من اخفاها أو أعلنها من أعلنها، لكنه استدرك ذلك؛ وإن لم يقفن علي ولم يعرني أي اهتمام.. رغم أن فيهن العوانس والأرامل والمطلقات والمعيوبات حيث بلغ نسبتهن المليون ونصف المليون، ما دعا لأقفال بيوتهن عليهن منتظرات للفرج، لم يعرفن سرمد أو غيره، ولم يعرفهن هو الآخر، لكنه قال قوله مجازاً ليس ألا.

بيد أن صديقه أجابه مجازاً: لو أنك رأيت طوابير النساء واقفة على بابك فلا تنسى أن تدعوني إلى هذا الحفل المبارك، لعلي ارزق بامرأة تحظى بكل تلك الصفات المطلوبة وأتزوجها ولو على سبيل المجاز.

بدا سرمد ملولاً خاصة من أولئك الذين لا تشبه ظواهرهم سرائرهم، وهم يتشدقون بالمثل العليا والقيم الرفيعة وهم لا يفهمون منها سوى سلاسة اللفظ وعذوبة المعنى، دون أن يطبقوا جزءً يسيراً منها، وأنى لهم ذلك، مازالوا أساتذة بارعين في محافل الظهور، ولصوص فسقة في نهب الآخرين، مصالحهم هي الهدف الأسمى لذلك تراهم يبدعون في لبس الأقنعة مخافة أن تكشفهم تلوّن الوجوه وامتقاعها.

فإحساس سرمد بان الصراحة راحة، ومن العيب الفادح أن يلف المرء ويدور على أمر ما وهذا ما يبعده عن هدفه الأصلي، وهو يرى بان لا شيء أفضل من الاستقامة، خاصة أن جميع طلباته مشروعة فما الداعي من الخوف والتردد، وأنك أما أن تكون متذبذباً في أمر ما حتى تصنع لك طريقاً ثالثاً تتوه فيه، والحق انه لا مكان بين النعم واللا، سوى الضياع.

سرمد من بين أشخاص كُثر يرى اليوم أفضل من الغد خاصة فيما يتعلق بالأزواج لكونه حر الاختيار وله كامل الحق في ذلك، لان المعروض يفوق الطلب، لذلك وجد أمامه أكثر من فرصة، وأكثر من امرأة لا بمعنى الطوابير لان مفهوم الطوابير جامع بين الصالح والطالح، المطلوب وغير المطلوب، وأن كانت مطالبه شبه عادية وغير مستحيلة، فذلك لا يمنعه من أيجاد

أكثر من عرض، ولربما عروض مغرية لكن المرأة هي الشيء الوحيد والبضاعة الوحيدة غير المعروفة، بخلاف كل شيء فان انك أقبلت على ذات مواصفات معينة، كبنت عائلة معروفة بالنسب والدين والأخلاق والثراء فضلاً عن الجمال والثقافة، قد تجد كل تلك الصفات موجودة في امرأة ما، لكنها لا تقبل بك، كونك متزوج، وعندك أطفال، ولا تملك بيتاً آخر، أو راتبك لا يستوعب إعالة عائلتين، علاوة على شروطها الشخصية، التي كثيراً ما تكون ظالمة وقسرية.

وبعضهن ممن يتمتعن بحسن خلق لكن سرعان ما تنتابهن نوبات غضب ومزاجية معقدة، كاستنكار بعض حقوقك التي الفتها من زوجتك السابقة، فربما الأولى تعد طعامك بصورة منتظمة وحسب الرغبة وتكوي ملابسك وتصبغ أحذيتك وتعنى بهندامك ومظهرك، بيد أن الثانية تعتقده ضرباً من ضروب تأليه وتقديس الرجل وأن هذه الأعمال لهي من التنازل المقيت والمؤلم بحق المرأة المتحضرة.

وان كانت طوع أمرك وهي تعرف ما للرجل الشرقي من حقوق فهي بالتأكيد ستلبي جل مطالبك بدافع الحرص على الحياة الزوجية لكنك قد تلمس منها ما لا ترضى كأن تكون لعوباً تضحك بسبب ومن دون سبب، أو تتكلم مع الآخرين أقرباء وغرباء، متعلمة

على نمط من الخروج، كأن ترتاد الأسواق أو الزيارات أو حتى تحب السفر والاستجمام، وهذا ما لم تعتد عليه من زوجتك الأولى.

وقد تذهب إلى أكثر من ذلك عندما تجدها ملسونة ثرثارة ترد عليك الصاع صاعين، وأنت تتجنب أن تكون احدوثتها التي ستعلقك على كل الألسن وفي كل البيوت، وتصبح أضحوكة لامرأة مزقتك شر ممزق وجعلت منك غسيلاً منشوراً على حبال الجار والأقرباء ومن لم يشترِ يتفرج.

الحق انه ليس هناك أية إمكانية من هذا النوع يمكن أن يتحملها سرمد، وليس بمقدوره

أن يفكر مجرد تفكير بهذا الأمر لكنه ظل صامداً أمام هذه التخوفات، وان كانت منطقية فهو قد اعدّ لها سلفاً جدولة من الشروط والمواثيق، وان يكشفها في فترة ما قبل الزواج، بما يسميه فترة الحب، متناسياً إذا ما اشتبكته بحبال صيدها فكيف المفر.؟

**

اعتاد سرمد أن يجلب معه غداءه بعد أن ملّ أطعمة السوق، وكالعادة يجلس مع أصدقائه الذين جلبوا غداءهم ويجعلون منها سفرة عامرة، وغالباً ما يتغدون

بعد الصلاة كونهم مستمرين في دوامهم حتى وقت الغروب.

وكثيراً ما يتوجه إلى أحد المساجد أو مقامات الصالحين لصلاة الظهر التي تكون على مقربة من عمله، ويترك محله مفتوحاً ترعاه عيون زملائه.

وذات يوم وإذا به ينتهي من صلاته في أحد المقامات، إذ يجد امرأة كالغزال الحذرة تقف قباله وتسلم عليه باسمه.

انتفض سرمد مرعوباً كالمصدوم بشحنة كهربائية، بعد أن أمعن النظر في ذلك الوجه الباسم كشقة البدر: ابتسام؟!

قالها مستفهماً رغم انه لم يجانب الصواب.

ابتسام برقة وغنج: كيف حالك يا سرمد؟

سرمد بشعور ومن دون شعور امسك بيدها وصافحها وكاد أن يقبلها لولا حرمة المكان، أو مخافة أن يكون أحد أقاربها بالقرب منها وبدأها بالكلام: وحدك.؟

بهدوء: نعم.

ـ تغديت.؟

ـ لا.. ولكني سأذهب إلى بيت خالتي.

ـ من أين مجيئك.؟

ـ من المحافظة. صمتت قليلا، ثم أردفت قائلة: كنت أراجع على راتب زوجي.

سرمد بنوع من الملاطفة والمجاراة: يرحمه الله.

بان على ابتسام نوع من الانكسار، وإحساس بالذنب تجاه سرمد وهي تحاول أن تبرر ما كان في الماضي البعيد، بقولها: كنت كثيراً ما أفكر بك، أتمنى أن التقيك، واعتذر منك، وطأطأت رأسها إلى الأرض ثم قالت: لربما أنت من اصحاب الكرامات، لذلك لم أتوفق في حياتي.

سرمد لا تنطلي عليه مثل هذه التبريرات وبالتالي أصبحت دعماً لمواقفه، أراد بذلك استدراجها للإيقاع بها، بقوله لا عليك أن كل أبناء آدم خطاؤون، والخير كل الخير بمن أقر بذنبه وكفّر عنه.

ابتسام كانت على علم بكل التغيرات التي طرأت على حياة سرمد بعكسه تماماً الذي يعلم عنها القليل فقد أخبروه بوفاة زوجها من قبل القوات الأمريكية، لأنه عمل ضمن صفوف المقاومة، واختلفت الآراء عن تصنيفه فهناك من يؤكد على انه مجرم قذر له أكثر من صلة بفلول الإرهاب.

ظلت ابتسام واقفة كان بودها الاعتذار كبادئ بدء ليس إلا، بعكس سرمد الذي كان يتمنى الكثير الكثير منها لغرض المتعة أو بالأحرى الانتقام.

فألح عليها أن تكون ضيفته وأن تتغدى معه، لكنها أبت ذلك كونها مستعجلة فقد تأخرت عن الذهاب إلى بيت خالتها، ووعدته بان تلتقيه في الأيام القادمة.

ولأن مثل هذه الوعود لا تمثل عند سرمد أي اعتبار كونها وعود براقة كالسراب، والعيش في أملها موت من الحسرة والانتظار، لذا أراد منها أكثر التزاماً، فما كان منها ألا أن أعطته رقم نقالها، سارع في حفظه بنقاله واتصل بها على سبيل التجربة فرن هاتفها وأوصاها بان تخزنه عندها وبالكاد فعلت وأخبرته كذلك بان يتصل في أي وقت شاء دون تردد من باب استمالته.

بينما كان سرمد يزأر كالأسد الذي يتحين الفرص، وكله ضعف وذبول قد تتسلل من ثغراته آلاف الطرائد التي تجوب في مساحاته الفارغة.

استودعها على أمل أن يلتقيا قريباً وهو يحوك خيوط كماشته وشباكه الممزقة على أمل أن يستفرغ في جعبتها كل لواعجه وسمومه.

ذهبت وهي تنظر إليه شزراً نظرة لئيمة ترى مدى أثر وقعها على نفس خطيبها السابق، أو بمعنى أدق خطيبها وعشيقها الأول الذي أرادت أن تطيح به فأطاح بها، وكلاهما ذهبا إلى حال سبيله وإليكم تفاصيل الحكاية:

شق سرمد حياته العملية مبكراً بعد أن تمت الموافقة على عمله بصنف كهرباء بحري في الناقلات البحرية متحملاً على عاتقه إعالة عائلته المتكونة من ثلاثة أفراد أم وأب عاجز وهو وحيدهما، جهد نفسه على مراعاتهما، وكان موفقاً إلى درجة أن نجح في كل الاختبارات، قد يكون بسبب دعائهما إليه أو بسبب حسن نواياه.

وانتقل من الريف إلى معظم دول العالم ابتداءً ببلجيكا ومن ثم فرنسا وإيطاليا وبالتالي استمر في رحلاته إلى أمريكا اللاتينية ودول أوربا الاشتراكية، خالط الكثير من الأجناس وصادق الكثير من العرب هناك علاوة على انه يحظى بعلاقات مميزة مع فتيات عديدة ما كان يتوقع أن يطولهن ولو بالأحلام.

تحسن وضعه المعيشي بشكل كبير وبدأ يهيأ نفسه للزواج وكان قد ملأ غرفته بكل النواعم والإكسسوارات الجميلة وغيرها، ورتّب بيته وغرفته بشكل خاص وقد اشترى غرفة أخشاب إيطالية المنشأ.

الأم واحدة من بين كل النساء التي تهتم بحياة ابنها وتبحث له سبل السعادة، خاصة وهو كل ما تملك، فغدت مسرعة لتخطب له واحدة من أجمل بنات الديرة، فما كان اختيارها ليخطئ (ابتسام) أو يتعداها، وكيف ذاك وهي مضرب الأمثال بالجمال والدلال.

(ابتسام) تعيش تحت إمرة زوج أم كان مسؤولاً حزبياً أشتهر بالخمر والفسوق إلى درجة التفريط بعائلته أما عن طريقة معاملته مع ابتسام كانت طريقة مزاجية كونه يرغب في تزويجها من أصحاب الشأن لحسنها وجمالها وتارةً يغلظ عليها، فيشتمها وينعتها بنعوت شتى للحطِّ من شأنها وشأن أمها.

ابتسام تعرف ما لـ سرمد من عمل راقٍ وسفر دائم وتأملت أن تنجو معه بعيداً عن سلطة زوج الأم، وتنفتح على عالم جديد، خاصة وهي تفكر بان تلتقي بابيها الحقيقي الذي طلّق أمها وهي صغيرة وهاجر العراق، هناك من قال انه مقيم في الكويت وآخرين قالوا انه في دبي، وتضاربت الآراء حول مكان إقامته كونه منقطع تماماً من الاتصال بابنته، والحق أنها لا تهتم أن تحظى بالأب الذي تركها ورماها لتلاعب القدر بها بمقدار ما تفكر بالأموال الذي كوّنها طيلة هجرته ولربما تكون هي الوريث الوحيد إذا لم يتزوج بعد، وإن تزوّج فهي وريثة مشاركة، وهو تفكير ينم عن حالة من العقد التي عاشتها ابتسام في ظل حياة قاسية مع أمها المرأة الوحدانية التي عملت جاهدة لرعاية ابنتها لحين أن التفّ عليها الزوج الثاني الذي وجدت به حس الرجل في زمن كثيراً ما تفكر المرأة الوحدانية بمن يحميها من

ذئاب المجتمع الضارية، وأن كان هو الآخر ذئباً، لكنها لم تكن بالشاة السهلة.

ابتسام لم تقوَ على التفكير بصورة صحيحة فهي مشوشة لا تدري ما تصنع، فان زوج أمها يمنيها برجالات الدولة الأكابر، وان كان لم يلتق ألا بالحثالة والأراذل من أسافل الناس الذين ينتمون إلى ذات الصنف.!

بينما كان رأي أمها خلاف رأيه وهي تتمنى لها أبن الحلال موظفا كان أو عاملا في أي مجال، المهم أن يكون قريبا منها يلبي متطلباتها، خلوقاً متأدباً يحترم الحياة الزوجية.

ما زالت ابتسام بنت الثماني عشر ربيعا وهي فتاة حالمة بالكثير كقريناتها، خاصة وهي تمتاز بسحر جمالها الأخاذ الذي يلفت الانتباه ويجلب الأنظار.

فمن حقها أن تتدلل وتشترط بل وتفرض على القادم المسكين أن ينفذ ويطيع حباً وكرامة.

وبعد دراسة مستفيضة ممحصة، رأت الأم وأبنتها وخالتها من استدراج سرمد ببعض الشروط كقيمة المهر والنيشان ونوعية الأخشاب، فضلا عن تخليل الموافقة بشرط جوهري هو أن أبنتهم الفاتنة تشترط أن لا ترتدي العباءة والحجاب فهي تفضل أن تكون سافرة.

(أم سرمد) المسكينة على نيتها لم تعرف ما تحت الخباء وما هو المضمور من وراء مثل هذه الشروط، ولم يبد منها سوى الترحيب والموافقة المسبقة دون مشاورة ابنها الذي لم يزل مسافراً ولم يدر بكل هذه المستحدثات.

حتى الأب لم يبد امتعاضه من هذه الشروط ويعتقدها شروطاً سطحية متمنياً لأبنه حياة سعيدة مع امرأة طيبة تحترم العشرة.

وما أن عاد سرمد من غيابه، حتى استقبلته الأم بالأنباء السارة.

لم يحر سرمد أي جواب، فهو لا يعرف البنت عن كثب، لكنه كابن محلة واحدة سمع عنها شيئاً عابراً ما كان ليدقق فيه، بينما كان منصّباً في تفكيره على امرأة تصون نفسها وبيته في غيابه الدائم، وتحافظ على والديه وترعاهم، وكون هذه البنت صغيرة وجميلة فهي لم تفِ بالغرض المنشود، لأنها تتغاوى بحسنها وقد تكون مغرورة ولا تهتم لمن حولها من قريب أو بعيد.

وكان كلما يحسبها لم يستطع حسمها، فان كل شاب وخاصة بمن كان بمواصفات سرمد كان ليتمنى مثل هذه الزيجة ويرحب بها أحر الترحيب.

وعندما جلس عند والديه، أستشعر مدى تحمسهم لهذه البنت (اليتيمة) على حد قولهما كونها لم تحظ برعاية الأب.

وأخذت الأم تهرف بما تعرف ولا تعرف وبعد رد وبدل وأخذ وعطاء، أخبرت ابنها بشروط الخطيبة.. فأحسَّ سرمد بأنها تسر حسوا في ارتغاء.

فقام سرمد من مقامه ورفض قضية الزواج من امرأة سافرة، فهو لم يحبذ ولم يرغب قطعاً بان تكون زوجته لم تتحل بلباس المرأة الحقيقي، إذا لم تراع الشرع فلابد من مراعاة العرف كحد أدنى، وبالتالي رفض الخطوبة جملة وتفصيلاً.. لكن الأم استنجدت بأحد أصدقائه، وكان من الحكمة أن يتشاور معه وان يتوصلا إلى قرار حكيم، فكان من الصديق أن أخبره بل وأكد عليه، بان هذه الشروط كلها سطحية وعندما تنتقل البنت إلى بيتها الجديد يستطيع الرجل أن يملأ عليها كل شروطه مرة بالعقل والنصيحة وتارة بالحب والتفاهم.

كما أن سرمد لم يكن ملتزماً يومذاك بل كان منفتحاً إلى درجة أن يمقت الكثير من الالتزامات، لكن عناده نابع من رفضه الكبير لشروطها أو التنازل الصريح لها، وهذا أمر كثيراً ما يحط من شأن الرجال.

واتفقا على لقاء ودي عند بيت الخطيبة، ليرى كلا منهما صاحبه.

**

أتت له بالشربت وجلست إزاءه كان بيتها متواضعا، بل ومنقوصا لأشياء كثيرة، على خلاف بيت سرمد المؤثث بشكلٍ راق والمجهّز بأحدث الأجهزة.

خيم الصمت وفي رأس سرمد ألف فكرة تدور، بينما كانت ابتسام مطأطئة رأسها إلى الأسفل تختلس بعض النظرات، خالة ابتسام كسرت الصمت بسؤالها الأول: سرمد ما مدة أجازتك.؟

سرمد، باختصار: خمسة وأربعون يوما.

ـ ومدة سفرك.؟

ـ غير ثابتة لكنها على الأرجح من أربعة إلى ستة أشهر.

ـ كم راتبك.؟

سرمد أذكى من أن يفصح بحقيقة راتبه، لكنه مضطر للتورية والمواربة: مائة وخمسون ديناراً.

الخالة مستغربة: قليل.

ثم أنها لم تسترح لنبرته وطريقة كلامه، لكنها مضطرة على تحمله: ماذا تعطي لأهلك، وماذا تعطي لزوجتك.؟

سرمد باختصار: أعطيهم ما يكفيهم.

أحست أم ابتسام وخالتها بان هذا الشخص ليس بالهيّن وانه أذكى بكثير مما يتصورن.

بينما كانت أم سرمد فرحة مسرورة ببداهة أبنها وضحكه وعدم تردده أو تذبذبه، وشهدت منه موقفاً رجولياً طالما شهدته منه سابقاً حينما تخلى عن دراسته ليلتحق بالأكاديمية البحرية ليعيل والديه.

فضّل سرمد أن يكون في موقع الدفاع أقرب منه إلى موقع الهجوم، لكنه تعمد أن يسمع هديل حمامته الهادئة وحمله الوديع المتلفع بأثواب الحياء، فسألها ما إذا كانت تود السفر.

ابتسام ما أن طرق السؤال مسامعها حتى ارتعدت فرائصها وباتت على وجهها صبغة وردية، وحلاوة ونضارة مشعة.. كانت علامات وجهها جواباً وافياً بالإيجاب، ولماذا لا تبحر وتهجر عالمها المليء بالحرمان والمناغصات، ومتى يكون ذلك، تبقى الأجوبة عالقة، شاخصة مثل علامات التعجب وراء السطور المبهمة.

لكن سرمد لم يكتف بهذا الاستدراك والاستحالة التي قلبت حياتها رأسا على عقب، بل أخذ يناور أكثر فأكثر ويتوغل إلى أعماقها بقوله: أعاهدك أن نحاول تمضية شهر عسل في أسبانيا.

ما أن سمعت ذلك حتى كادت تسقط من طولها مغشياً عليها، لكنها بالكاد تماسكت نفسها. بينما كانت خالتها أشد لؤماً بقولها: وكيف ذلك.

سرمد، متبجحاً: هذه من حقوقنا كبحارين.

الخالة: لا أظن ذلك.

ابتسام دخلت على الخط وهي المرة الأولى التي رأت من الضرورة أن تصرح وتكتم أنفاس خالتها قائلة: وما الضير في المحاولة.

الخالة تشكك بصحة أقواله وتجزم على أنها محض أكاذيب، لكنها لم تجد الأذن الصاغية، خاصة أن صاحبة الشأن مقتنعة بكل ما يمليه عليها، لذلك انسحبت الخالة مبكرة، ما أحس سرمد بالفخر والانتصار، وانه كسب أول شوط من المعركة.

واستودعهم على أمل اللقاء قريباً بهم، كانت أمه تودع أمها وهي تخبرها (بأنهم قريب ما يرسلون لهم موعد خطوبة الرجال رسمياً).

بينما نظرات سرمد لم تفارق ابتسام وفي لحظة أخيرة خلفت معها ذكرى طويلة الأمد، وهي تومئ بأطراف أصابع يدها اليسرى لتوديعه، وهي على مقربة منه، أخبرها بصوت أقرب بالهمس: لولا الخجل لودعتك بألف قبلة.

في حين أنها أحنت رأسها وبرقة وفتور قالت له: غالي والطلب رخيص.

ليل العاشقين طويل، سرمد ارقٌ يتغنى مع أم كلثوم أنت عمري والحب كله وألف ليلة وليلة، وكلها أغانٍ لم تف بالغرض، حتى وجد مبتغاه في أغنية غداً ألقاك المنتجة مناصفة بين أم كلثوم وعوض دوخي بعيداً عن رقابة الملكية الخاصة، وراح يغني بل ويطرب معها، ولم تغب صورة ابتسام لحظة واحدة عن ذهنه، بل يراها على سريره وفي مرآته وعلى أريكته، حتى راح ينعته باللقاء القاتل.

بينما عاشت ابتسام تلك الليلة على مضض، وهي تسبح بالأحلام اليقظة التي تكدست على الفور في لب مخيلتها وشغلتها عن النوم والاستقرار، وهي تعيد شريط ما حدث رويداً رويدا، وتفكر في حال أن كان جدياً في أقواله، وأنهما سيركبان البحر ويسافران لا على التعيين فهي لم تشترط مكاناً معيناً بمقدار ما هي عازمة على الانطلاق بعيداً عن عالم يملؤه الخوف والعنف واللا رحمة والقيود.

بينما استبدت الخالة بآرائها، وأخذت تتمتم بكلمات سريعة لم يفهم منها سوى أنها خرجت حانقة يحدو بها الغضب والكره، وان أكثر ما هيّجها هو انقلاب بنت أختها عليها، والاصطفاف مع خطيب لم تكن خطبته

رسمية بعد، وقد تعترضه ألف مشكلة، لان هناك أناساً من اختصاصهم التدخلات السافرة، بغية تعكير حياة الآخرين.

استطاعت أم ابتسام أن تقنع زوجها، وتليّن جانبه بصدد الخطبة، وسردت جملة من الامتيازات التي يتمتع بها الخطيب، فوافق على غضاضة، لكنه هدد بان له نصيباً من مهرها (حق رقبتها)، لا يقل عن المائة دينار.

بدأ على الأم التجهم والاستياء، لكنها لم تستطع أن تبدي أي رفض، كونه قادر على نسف الخطوبة برمتها، لذلك استرجعت بصمت.

وتمت مراسم الخطوبة رسمياً وقد حضرها أناس كثيرون من جانب البنت ومن جانب الولد وان أهم من جاء من جانب البنت اثنان من أخوالها ونفر من أصدقاء العائلة، أما النساء فاجتمعت الأقارب والجيران والأصدقاء.

واتفقا على صيغة الرسم المعمول به في عموم المنطقة بيد عارض زوج الأم مثل هذه الرسوم، وطلب مبلغاً إضافياً كون أن السوق غالية، وجهاز البنت كثير. واستجاب أبو سرمد إلى ذلك دون مماطلة، لان هذه الطلبات سترجع إلى زوجة ابنهم بالتالي فهم أولى بإكرامها وتنفيذ مطالبها.

ورجع زوج الأم ليعارض بشدة، صيغة عقد القران عن طريق رجالات الدين، وأصر على أن يكون العقد في المحكمة رسميا، ودافع عن آرائه بكل ما أوتي من لعانة، واستبد بغطاء عمله والمسميات الجوفاء.

ورضي بتقديم (النيشان) وهذه بداية لتسمية الخطوبة وأولى التقاليد المتعارف عليها أمام الناس والخيرين الحاضرين في الخطبة.

ووجد الأب أن لا مانع من الموافقة فكلا العقدين صحيح، فلا داعي من الخلاف وهو بأمس الحاجة إلى التفاهم وبناء جسور المحبة الوثيقة.

وان كان بعض الحاضرين من استمرأ هذه التصرفات واستهجنها بالنظرات أو بالهمس لصاحبه، لكن أبا سرمد كان أذكى من أن يدخل في صراع مبكر.

وحددا موعداً لذلك سبقه موعدٌ آخر للفحص الطبي الإجباري لصحة العقد الذي تطلبه المحكمة، وانصرفوا على أمل اللقاء مجدداً.

وحين الخروج التفت سرمد إلى صبي كان قد نده عليه وسلمه ورقة صغيرة، كان الصبي شقيق ابتسام، ففتح القصاصة على انفراد وكان فحواها (أنك مدعو عندنا على الغداء يوم غد، فبكر ولا تتأخر، أنا بانتظارك.. حبيبتك ابتسام).

طبعاً أن مثل هذه القرارات ما كانت لتصدر إلا بقرار مشترك مع أمها على اقل تقدير، وبالفعل أن الاثنين استغلا غياب ولي الأمر حيث يتوجه إلى عمله النهاري.

سرمد يتعلق بأستار الليل ليسدلها على ليلة ما كانت لتنقضي وهو حائر مسهد، رموشه منتصبة ما كادت لتنطبق وتغمض، وهو ينظر للأفق المترامي الأطراف، لعل بصيص نور الفجر يكشف الغبرة ويطل بيومه المرتقب.

وبين الشك واليقين سرقته الغفوة حتى الضحى، نهض وتفطر ومن ثم تزيّن وتهندم بأجمل هندام، وعنى بلبس الزي الغربي تماماً من بنطلون كابوي وتيشرت سوداء ضيقة على ظهرها صورة نسر، ووجهها أشبه بسبورة أو صفحة جريدة لكثرما كتب عليها من جمل وعبارات قد تكون أكثرها مشيناً، تعمد الشباب على ارتدائها للفت الانتباه ليس إلا، ولبس ساعة سايكو فاخرة ونظارات شمسية سوداء بالإضافة إلى سلسلة جيد ذهبية.

سارع بالذهاب إلى بيت خطيبته، لكنه تذكر ضرورة أن يحمل معه هدية ما، على الأقل لتبين مدى رفعة ذوقه، وانفتاحه وكرمه، واخذ يحك فروة رأسه،

ويعصر صدغيه، دون أن يصل إلى إجابة شافية، لنوعية الهدية، خاصة انه بعيد عن السوق نوعاً ما.

لكن لا مناص من الذهاب إليه، وان تأخر بعض الشيء، فللهدية أكثر من معنى ووقع في نفس خطيبته.

فالعطور مثلاً سرعان ما يزول، وتزول ذكراه، فأجمل عطر لا تتعدى قيمته العشرة دنانير أو أكثر بقليل تقريباً.

ذهب إلى الصور أو المعايدات، باقات الزهور، الألبسة، ربما الألبسة هي الأفضل، خاصة الألبسة الداخلية التي ستعكس مدى رغبته، بل والنظر لكيفية التجاوب معه، لكنه سرعان ما تراجع عن أفكاره، لكونها تنم عن ضيق أفق، وفكر ملياً إلى أن تكون الهدية جديرة باهتمامها، بل ستشغل تفكيرها وتستميل قلبها وتحرك جميع هواجسها الراكدة.

فلم يجد سوى قلادة عبارة عن حرف (S) بالإنكليزي، ستحملها على صدرها الممترع، ليثبت اسمه كالصلبان بين ترائبها التي لم يرتشف من ضرعهن حلاوة الحب بعد.

وصل إليها فاستقبلوه أحر استقبال، واحتفوا به أيما احتفاءً، بعد أن بدأها بتقبيل يد العمة الكريمة ومن ثم تقبيل الرأس، ووقف وفي يده يد ابتسام عالقةً متحيراً ماذا يصنع، أيقبل يدها وهذا أمر مشين لدى رجال

الشرق، أم يقفز ليقبلها من يدها حتى أخمص قدميها، بينما كان تواقاً إلى أن يمتص شفتيها الطريتين بعد أن زينتهن بأحمر الشفاه الوردي الهادئ.. لكنه ثبت ثبات الرجال الابطال، وأرجئ ما عزم عليه إلى حينه، وما أن أحست ابتسام بفتور رغبته، أخذت بيده وأدخلته إلى غرفة الاستقبال، وجلست إلى جانبه، تطيل النظر به، بينما كان هو الآخر يطيل البحث فيها، ويفحص كل معالمها، وكانت نظراتهما كافية عن الكلام، وما حاجة العاشقين للكلام في لحظة إحساسهما كأنهما روح واحدة في جسدين.

دخلت أم ابتسام وعلى وجهها ابتسامة عريضة وفي يديها صينية الشربت وقطع البسكويت، وكالعادة رحبت به، وأخبرته أن يأخذ راحته فالبيت بيته وخرجت وقد أقفلت الباب من وراءها لكنها سرعان ما أطلت عليهما قائلة: إلا ما حرم الله.!

سرمد أومئ برأسه بالإيجاب.

وجد الاثنان صعوبة في بداية الحديث وكليهما من يعول على صاحبه في قدح شرارة الانطلاق، لكنهما يئسا من الوصول إلى مقدمة مقال يتجاذبا أطراف حديثه ويتعلقا في جوهره، وأخذ يترامیان في النظرات المشبعة بالرغبة والهيجان، وتحمس أن تكون بداية

حبهما التراشق بالقبلات وعلى مديات قصيرة، فبالكاد تكون الضربات موجعة وذات أثر بالغ.

وبدأها سرمد في أن احتضنها بالكامل وضمها إلى صدرها بشدة وعنفوان.

ما دعاها للقول: ما هكذا يا سرمد تورد الإبل.

بينما ذهبت بالذوبان كالشمع بين يديه، وهي تستقبل هذا الفك المخيف بالنهم والافتراس، وما أن ينفصلا قليلاً ليتنفسا بعدما توشك أن تنقطع أنفاسهما من شدة التقبيل، حتى يعيدا الكرة مرة أخرى، وقد طاب لهما الوضع أن يتمددا، وتتشابك الأرجل والأقدام ببعضهما، غير آبهين بكل القيم والضوابط، بعدما استطاع أن يفك سحاب ثوبها وينزل ليخوض معركته الثانية مع تلك النهدين اليافعين، وكأنها سلمت نفسها بالكامل إليه، ما عادت تشعر بخطورة الوضع، بينما وجد سرمد لذة المغامرة وان يستمر بالمجازفة ليحرك بقدميه أطراف ثوبها ليكشف عن ساقيها، حتى وصل حد الركبة أو تجاوزها بقليل، مدت ابتسام يدها لتمنع هذا الغزو الغاشم.

لكن سرمد لم ينته من التقبيل إلى درجة الاستمرار بالمص والارتشاف المتواصل بدون انفصال، وقد تجاوز المألوف بعد أن أخذ بالعض في أطراف أسنانه لأعلى النهد مروراً بالكتف ومن ثم الزند.

لكنها بدأت تلملم نفسها وتعيد قواها المسلوبة، عندما استشعرت بأنها عرضة للنهب والسلب، حتى استطاعت أن تجلس على حيلها، وتوقفه عن نهمه وطيشه، ورتبت ملابسها، وهي تمسح وجهها بعدما بات يتصبب عرقاً، لكنها لم تفقد الابتسامة وليس في نيتها أصلاً أن توبخه أو حتى تلومه، فالأحرى أن تلوم نفسها، وأن كانت تعتقد أن هذا التصرف من الممارسات المشروعة، وان كانت سابقة لأوانها بعض الشيء.

وبالتالي كلمته باحتيال: أنت جشع..

وأخذت تلاحظ تعابير وجهه، ثم أردفت: لم ترضَ بالقليل.

سرمد، جازماً: أنك أجمل وأنفس ما يطمع به طامع.

ابتسام، ممحصة: أقوال ليس إلا.

سرمد، مؤكداً: أنا لا أكذب أبدا، وصمت هنيهة ثم تابع قوله: سافرت إلى أكثر بلدان العالم، فلم أر أجمل وأنقى وأعذب منك.

ـ أنا.؟

ـ أعجز أن أصفك، فلا أستطيع أن ابلغ جبالك أو أطول سماءك.

ابتسام تشكك: كلامك إما ولع وإما طلاء.

سرمد ينهي النزاع بقوله: لا تستهاني بنفسك، فأن لك شأناً وقدراً أجل من أن يوصف، بالتالي راح ينشدها مقتطفات من جملة ما كتبه في الغزل:

أطوف الليالي بقارب الحلم
الذي يطفو في الهوى العذري
واشم رائحة النهد عن كثب
كأنهن زنابق الصبح تندو بالسحر
وأعانق التي كلما ألثم شفتيها..
كأنني ألثم النجم..
فيهوى على صدري
تعالي نغير على العادات نهزمها
فالذي قال عنها..
لم ير الحب ولم يدرِ.

ابتسام تجد في كلامه عذوبة هذه المشاعر الفياضة ما دفعها للاعتزاز بالنفس والافتخار بعدما أنعشها في كلماته الجميلة التي راحت تطرب لسماعها.

لكن الظروف المحيطة بها كانت أشبه بالبيئة السيئة التي لا تنبت الرياحين، وان وصفه وان لم يكن دقيقاً كونه نابع عن حب أعمى يرى كل ما حوله جميل، لكنه بالكاد به الشيء الكثير من الصدق والعفوية.

وبدأ الحديث من جديد، لكن هذه المرة كان أكثر جدية لبناء جسور الثقة والتعارف. سألها سرمد: ما هي طباعك.؟

ابتسام: الصدق، الحب..

قاطعها سرمد: السلبية.؟

ـ عنيدة بعض الشيء، أنانية أحياناً، متشائمة كثيراً.

ضحك سرمد لصراحتها.

وكردٍّ سريع، قالت: الصدق من طباعي المميزة.

ـ هواياتك.؟

قالها سرمد وهو يأمل أن تكون مقاربة لهواياته.

صامتة تعض على شفتها السفلى ثم قالت: السفر، الاستماع إلى الأغاني، ثم سكتت برهة، ونبست قائلة: الرقص.

فزّ سرمد منبهراً، مكرراً عليها قولها: الرقص.!

ومن دون استحياء، وهي تهز برأسها: نعم الرقص.

سكت سرمد كمن غاب في عالم آخر.

بينما أحست ابتسام بان هناك خطب ما، فقالت: لديك مانع.؟

سرمد، متلكئاً: لا. لا، ولكني..

ـ لكنك ماذا.؟

ـ مستغرب جداً.

ابتسام: ممَ.؟

سرمد، متحيرا: لا شيء.. لا شيء على الإطلاق.

ابتسام: أراك مرتبكاً، أو بالأحرى ليس على بعضك.

سرمد مائة وثمانون درجة تغيير: تعرفين أن أجمل ما أحبه في المرأة هو الرقص.

ابتسام لم ينطل عليها مثل هذا الكلام، لكنها تماشت معه، ثم سألته: لم تخبرني عن طباعك وهواياتك.؟

وجد سرمد من الضرورة بمكان تغيير الموضوع، وعزا ذلك إلى ذكائها، فأجابها على الفور: طباعي.. لجوج، أحب بإفراط، وأكره بإفراط، لا اعرف الوسط، الصدق والكذب اعتبرهما صفتي توظيف حسب الحاجة والظرف، مجامل وحلو المعشر، إما هواياتي فهي متنوعة دون حصر أو حدود.

ابتسام: هذا إيجاز غير معبر.

ضحك سرمد وهو يلمح إلى أن هذه الفتاة أكبر من سنها، لما لها من الدراية والحنكة، وان كانت قد توقفت عند دراستها المتوسطة، فهي أرحب أفقاَ وأوسع غوراً بكثير من تلك المتعلمات.

بينما كان يعزم على الرجوع إلى تقبيلها، لكنه استحى لشعوره بالإفحام.

لكنها شعرت بضرورة تغيير الأجواء، لذلك سارعت في فتح الباب، ونادت على أمها بان تجلب الغداء.

وفي هذه الأثناء استغل سرمد الوقت واخرج هديته من جيبه ليقدمها إليها، بعد أن فتح العلبة عنها وسلمها إليها، نظرتها باستحسان وتركيز وشكرته بقولها: اسمك محفور بالقلب يتحرك مع الخافق.

ما كان سرمد ليصدق هذا المديح والانجذاب السريع، حتى طلبت منه أن يُعلّق هذه القلادة على رقبتها.

فرفع شعرها المنساب على ظهرها وكشف عن عنق يبرق كالرخام الأبيض، وغيّر رأيه في شد القلادة بعدما ثوى عاكفاً على تقبيل جانب الرقبة، حيث منابت الشعر الناعم كالزغب في العلباء، وأخذ يطبق نفسه بقوة على مؤخرتها البارزة، ضغطاً غير طبيعي، فكان منها أن لوت بذراعها على رقبته، وأخذت ترجع عليه أكثر فأكثر، حتى شعرت أن هناك هجوماً مسلحاً بدا يخترقها، ويديه تتدفق لعصر الزندين وانسابت تدريجياً لتلعب بالنهدين، ما عاد بالتالي على إثارتها، فاستدارت إليه لتنام بين أحضانه واقفة، وتمضي حسرات الشوق صارخة متأوهة بأوجاع الماضي وحلاوة الحاضر.

دخلت الأم بغتة ووجدت تمثالين قد التصقا من دون حراك، فأنزلت صينية الغداء إلى الأرض، تهز بيديها، ثم صرخت عليهما، فانفضا بسرعة وجلين وعلى وجهيهما علامات الخجل، الأم لا تريد أن تكبّر الأمور،

وبالتالي فان الذنب ذنبها لأنها تركتهما بخلوة وانفراد، وبالطبع أن يحدث ما رأت كون الفرصة مؤاتية، مادام لا رقيب هناك أو حسيب، وان ما رأته لم يعد بالشيء الخطير، فالتقبيل دلالة على الحب، كونهما للتو في أول المشوار، لذلك أمرتهما بالجلوس للمائدة وخرجت من الغرفة، بيد أنها تركت الباب مفتوحاً هذه المرة.

ابتسام ضحكت ضحكة طويلة لأنها رأت تلعثم سرمد بل وتغير وجهه إلى أطياف قوس قزح، علاوة عن أنه لم يبد حسا ولا نفسا وذلك لشعوره بالذنب، فهو لا يحبذ البدايات الخاطئة.

فسارعته ابتسام بتخفيف العبء بقولها: لا عليك.. لا عليك.. مجرد خوف أمهات ليس إلا.

جلسا حول مائدة الأكل وعينيهما ترقب الآخر، فهما أشد جوعاً للحب والمداعبة منهما لأي شيء آخر، وأن أشبع التقبيل نهمهما، لكن ذلك لم يمنعهما من الأكل ولو قليلاً، لأجل أن يضيفان على حبهما الزاد والملح ، فكانت تقطع له فخذ الدجاج على شكل قطع صغيرة وتزق في فيه كالعصفور كذلك يبادلها بعض القطع، حتى أكلا الشيء الكثير من اللحم دون أن يقتربا لكل ما كان على السفرة من الرز المحشو، والفاكهة والخضار، وبطريقة اعتاد عليها أبعاد السفرة،

والرجوع من جديد على التقارب، لكن ما لبثت الأم حتى دخلت سريعا فأنفضا وهما يضحكان بفتور.

جمعت ابتسام المواعين والسفرة، وأخرجتهن إلى المطبخ وكانت الأم تلملم بقايا الأغراض.

حتى نادت عليه ابتسام من الخارج: تعال غسّل.

وما أن غسل حتى حث الماء في وجهها فبدأ كحبات الندى المتساقطة على أوراق الشجر فجر يومٍ بارد، فاستحت أن تبادله اللعب في الماء، مخافة أن تلوث ملابسه أو أن تسيء الأدب معه.

ومسحت وجهها في المنشفة، لكنه اخبرها: من الأولى أن أمسح رذاذ الماء المتساقط على وجهك بالقبلات الدافئة.

أجابته بنوع من الوقاحة: ما قصرت وما أبقيت.

واصطحبت قولها بضحكة عالية.

ما أن سمعت الأم ذلك حتى أستعابتها واستثقلتها، لما رأت من ابنتها من الخفة وعدم الرزانة، خاصةً أنها لم ترتبط مع خطيبها بعد بأي عقد شرعي، وهذا بحد ذاته من اكبر المشاكل الخطيرة في المجتمعات الإسلامية.

أحس سرمد من نظرات عمته المقيتة، بان عليه أن يحافظ على مستواه وهدوئه، لتغيير رأيها ونظرتها عنه كحد أدنى، فلم يجد مخرجاً أو سبيلاً سوى أن يستأذن بالخروج.

لكن ابتسام ألحت عليه أن يشرب الشاي، بعدما سارعت في إعداده وتقديمه إليه، ومن ثم أخبرت أمها بهديته التي قدمها إليها واقتربت منها لتريها لها، لكن لم يبدِ على الأم أستقباحها أو استحسانها، بقولها الخارج من الخيشوم: لا بأس عليك.

بينما ذهبت الأم سارحة مع نفسها متسائلة (كم يا ترى أخذ من ابنتها مقابل هذه الهدية، من تقبيل واحتضان و..و..)

إلى أن قاطعها سرمد من سلسلة أفكارها وتخوفاتها بقوله: سآتي غداً لأذهب مع ابتسام للفحص الطبي.

الأم بهدوء مشوب بالتهكم: نعم.. وسأذهب معكما.

شعر سرمد بالغم، بالإضافة إلى أن لهجتها تغيرت كثيراً عن السابق، فحاول أن يبرر فعلته، لكنه رأى أن الأمر متروك لابنتها التي غمزته بعدم الاهتمام والاكتراث، كما أخبرته مسبقاً بأنه خوف وحرص أمهات.

خرج سرمد وهو يتمنى أن تعدل الأم عن رأيها بالذهاب إلى المشفى معهما، ليتسنى له أخذها إلى بيته وتمضية وقت مماثل بعيداً عن السلطة الأبوية، لكنه ترك الأمر لوقته، فالظروف كفيلة أن تتيح له مثل هذه الأوقات الجميلة، بيد انه راح يعجل في حساباته

للإسراع بالزواج، كونه شعر شعوراً كبيراً بمدى حبها والانجذاب إليه، وبادلها كذلك نفس الشعور وربما أكثر.

وبينما هو يستذكر شريط الذكريات معها، عرض عليه هواية الرقص كالنتوء المنبوذ أو المرض الخبيث، واستغرب أكثر من أن تكون هناك فتاة شرقية ميالة للرقص، في زمن ومكان يرفض ذلك رفضاً قاطعاً، لكنه استرجع أفكاره، ووجدها كلمة قد تكون لا تعرف معناها أو لربما تحاول إغراءه وإغواءه للانكباب عليها، وثمة أمر آخر ماذا لو تمتع بعروضها الراقصة، وكيف فاتته أن يطلب منها ذلك، وهي تشد مؤخرتها، محزّمة بقطعة قماش، تتلوى بالقرب منه كالأفعى والناي، الأمر محير ومضحك في الوقت نفسه، وبالتالي يستحق احتساء النبيذ والسكر حتى الصباح، لكنه بالكاد تراجع عن قراره الأخير، كونه عاهد نفسه أن لا يشرب في ديرته مخافة أن يعلم والداه به.

وانصرف إلى البيت نشواناً بلذة المغانم التي غنمها في غزوه الأول على أمل أن يزداد الصيد في الموسم القادم.

وفي اليوم التالي ذهب إليهم لغرض الفحص الطبي الذي يعتبر فحصاً روتينياً لمعرفة فصيلة الدم ليس إلا، لكنه من ضمن الوثائق المعتمدة لدى المحكمة.

كانت الأم وأبنتها مستعدتين للذهاب، أستأجر سيارة أجرة للمستشفى الجمهوري.

قطع باصات المعاينة وأستلم الاستمارتين وتوجها صوب المختبر، جلسوا في قاعة الانتظار، لكن ابتسام استوقفته أن لا يجلس فأخذت تنظف الكرسي من التراب بمناديل ورقية خفيفة، بينما هو واقف يرمقها بنظرة إعجاب وإكبار.

لم تسع أية فرصة ليبادلها الحب سوى همس شفاه، تعبر بالفضاء، مخافة أن تكون أمها تسترق السمع.

وعندما دخلا إلى المختبر وجد ثلاث ممرضات، انصرفا كلاً منهما إلى ممرضة لأخذ عينة من الدم لكليهما، بينما كانت الممرضة التي وقف سرمد عندها وقحة إلى درجة كبيرة قائلة: من أي الكنوز عثرت عليها.؟

سرمد ممازحا: لا تسمعك أمها.

الممرضة مستهجنة: ماذا تريد هذه الشمطاء.؟!

سرمد، محتالا: قطعُ أرزاق.

ضحكت الممرضة، بينما رمقته ابتسام بطرفي عينيها، بشيء من الزعل.

وأعادت الممرضة قولها: خذها وأهرب بها إلى الأماكن الخالية.

سرمد بنوع من المكر: إلى أين، فأني لم أستطع أن أقبلها منذ الأمس.

الممرضة بمكر: خذها وراء خزانة المصلات، الذي يعزل المراجعين عن الموظفين.

لكن ابتسام تهز له بسبابتها اليمنى، تجابهه بالرفض وألا يرتكب أية حماقة، وخرجا لقاعة الانتظار لينتظر النتائج، بينما كانت ابتسام تطيل النظرات الفاحصة والمحبة إليه، كان يبادلها ذات النظرات، منقوصة بالخلوة وتجسيد الحب على الطريقة الغربية.

ورجعوا بنتائج الفحص الإيجابي، لكن الوقت كان سلبياً إلى درجة انه لم يستطع مكالمتها وكأنه لقاء الخرسان.

فراح يتلاعب بأوراقه الأخيرة بان يأخذهن إلى المطعم للفطور، رحبت ابتسام بذلك الطلب، لكن الأم رفضت ذلك، وتذرعت بالاطفال، وفضلت أن يجلب أي نوع من المشويات (سفري) ليفطرا في البيت، فاشترى بضعة أسياخ من الكباب والمعلاق المشوي، وأتى به إليهما لعله يجد فرصة استضافة جديدة، وبالتأكيد تفهمت ابتسام الأمر، وعزمت عليه بل وأصرت على مجيئه، لكن الأم كان موقفها سيئاً إلى درجة أنها لم تنبس ببنت شفة.

ما حال دون مجيئه والانضمام إليهما، فالعاقل من لا يتسبب بإحراج الآخرين، وبالتالي قد ينعكس سلباً على علاقته بابتسام، أو قد يسبب لها أي نوع من الضرر.

وعلا وجهه نوعٌ من الكره والمقت لعمته، ما كان ليجد بداً من الخلاص منه، ورجع للبيت مهموماً مغموماً كأن هناك من كبس على صدره، وليس هناك كابوس اشد من وقع عمته على ذكراه.

وفي عصر ذات اليوم، إذ هو يغط بنوم الكآبة والملل، حتى اسيتقظته أمه بقولها: نسيبك يريدك.

فأدخلته إليه، بادره بالتحية، وأجلسه إلى جانبه متسائلا: ما الأمر.؟

النسيب الصغير: أرسلتني أمي تطلبك.

سرمد مستغربا: هل حدث مكروه.؟

النسيب: كلا.. لكن خالتي عندنا وهي من أوصت عليك.

سرمد: الأمر لا يبشر بخير إذاً.

النسيب: ماذا.؟!

سرمد: لا.. لا شيء، اذهب وسأتبعك.

النسيب، مؤكدا: لكن لا تتأخر.

ألف فكرة طرأت عليه، ماذا يريدان هذان العجوزان.؟ حتماً أن هناك مصيبة ما، وحاول أن يصرف التفكير عن نفسه معللاً ذلك ببعض الأقوال

المأثورة (لا تفكر فلها مدبر) بعد قليل ستنجلي الغبرة، وينكشف النهار، لكن كل هذه التبريرات ما عادت تفيده بعدما سيطرت عليه أشباح التساؤلات، تنز على مخيلته نزو القرود، وكاد لا يرى سوى بوادر السوء تخيم بظلالها عليه.

وصل متأخراً بعض الشيء، فاستقبلنه أحر استقبال، وأخذا بيديه وأجلسنه وسطهن، وأمرنا ابتسام لتجلب له الشربت.

سرمد لا يفوته مكرهما، وهو يخبر مثل هذه الطرق اللئيمة، خاصة وهو ينظر لابتسام ويدرك مدى تثاقلها ومضايقتها وتعكير صفوها، وكأن وجهها بدا كالمرآة التي يرى بها سرمد انعكاسات الوضع الحالي.

بالتالي خاف أن يكون الشربت مسحوراً، وان كان لا يؤمن بمثل هذه الخرافات، لكنه وضع ذلك نصب عينيه لتحاشي أي طارئ، ما دعاه للتريث دون أن يستعجل خبرهن وهو واعٍ وكله أذان صاغية.

الخالة، مبادرةً: تحب ابتسام.؟

سرمد، بهدوء: الله اعلم.

سؤال لم يستوفِ الإجابة المطلوبة. هكذا قالت الخالة.. وهي تأمل أن يجيب سرمد بأكثر انسيابية وتلقائية.

ـ نعم أحبها، وكثيراً جداً.

يتكلم سرمد وهو يقرأ ما ينعكس في وجه ابتسام من ألوان، وما إذا كانت راضية في هذا التحقيق الغامض أم لا.

الخالة: هل أنت مستعد أن تضحي من اجلها.؟

سرمد، بسرعة: بمن.؟

الخالة: بالكثير.

سرمد، نافرا: تحديداً، ثم أردف قائلا: ادخلوا بالمفيد.

الخالة، ساخرة: أحسنت، ولد عاقل، لا وشاطر أيضاً، القصة وما فيها أن ابنتنا ابتسام لا تريد العيال.

سرمد، بعصبية: ماذا.؟ وهو يشمر بيديه، أي عيال.. أي (خرابيط)، لا أفهم، ما المطلوب بالضبط.؟!

الخالة، بخبث: هدأ من روعك، أنها تطلب حقها بان يكون لها بيتٌ مستقلٌ، بعيداً عن أهلك، لتأخذا راحتكما.

سرمد يشعر بدوار، وهو يحاول فهم المزيد، مستغرباً من هذا التغيير المفاجئ، خاصةً أن ابتسام لم تبد أية كلمة قبول أو رفض، وما إذا كان لها يد في ذلك أم لا، وهل يُعقل أن تكون قد سحرته إلى درجة أن يترك أهله لأجلها، هيهات فهو الابن الوحيد لهما ودائماً ما ينعتونه بالابن البار، فكيف يتحول في لحظة واحدة وراء ابتسامة امرأة، قد لا تفهم الحب أصلاً إلى ابن عاق، فبدل المرأة ألف، وابتسام لم تكن في حياته سوى لحظة انس قد ربح التلاعب معها وكسب الجولة.

نعم انه شعر بمرارة وألم جراء قصة حب سريعة ومؤلمة النهاية، ما الدافع وراء ذلك، ولماذا لعبن معه هذه اللعبة القذرة، من سيكشف له خيوط المؤامرة.. ما هو موقف ابتسام، التي لم يذكر منها إلا الحب والحنان، لماذا لم تمانع أو تبدي استنكارها إزاء من يريد أن يدمر حياتها، قد يكون القرار خارجاً عن ارادتها، وليس لها سوى الاستماع وانتظار النتائج.

اقتنع سرمد تماماً بأنها محاولة لفسخ الخطوبة ليس ألا، لكن ما أساءه أكثر، هو لماذا وما الأسباب الداعية لذلك، هذا ما لم يجد له أي جواب.

ينظرهن جميعاً وهن منتظرات بماذا يبت وعلى وجههن غبار المكر والخديعة، إلا أن الخالة استطالت صمته قائلة: خذ وقتك في التفكير فانه قرار مصيري في محاولة لكسر صمته.

سرمد، برزانة: أتعرفون الجحيم.؟

أبدن استغرابهن دون أن يدركن المقصود على وجه الدقة.

ثم أردف قائلا: هي واحدة من آبار جهنم، اذهبن إليه.

وقام من بينهن وهو يهز يديه، لكنه لم يكتف بذلك حتى بصق وسطهن وخرج.

فسخت الخطوبة، بعد أن أستعاد جميع ما قدمه من مهر ونيشان، باستثناء قلادته الصغيرة التي لم يكشف

سرها، ما دعا إلى أن يعتبرها قيمة ما اجتره من تقبيل، وبذلك انتهت الحكاية.

**

لكن يظل السؤال الملح من الذي أتى بها ورماها عليه، وهل أنها لحظة الانتقام من امرأة جرحت كرامته وخدشت كبريائه، وقتما رفضته من دون أن تفكر بالاعتذار منه على اقل تقدير.

بعد قرابة عقدين من الزمن تعود ابتسام فجأة لتتوغل إلى عالم سرمد المليء بالمتناقضات والمتغيرات السريعة، والطلبات العتيدة، رجل على هامش الأغلفة، ضال الطريق، عصي القدر لا يدري سوى انه عاشق على سبيل الانتقام.

سارع بتخزين رقمها واتصل بها على الفور، بينما كانت الأجوبة تترى (الجهاز مغلق أو خارج منطقة التغطية).

وعاد الكرة أكثر من مرة مستغرباً، بعدما تأكد سلفاً من صحة الرقم، لكن لماذا، وهي من بدأت السؤال عنه والسلام عليه، لكنه توقع أن يكون إغلاق الهاتف إغلاقاً احترازياً، مخافة أن يتصل بها وهي في بيت خالتها،

التي كانت السبب الرئيس في تحطيم علاقتهما، وظل شغله الشاغل أن يتصل مراراً وتكراراً دون جدوى.

ما عكر مزاجه وغير كل تعابير وجهه وبانت عليه نوبة القلق والاضطراب، لذا بدا عصبي المزاج حاد الكلام مع الزبائن والأصدقاء غير مكترث بالجميع.

وعاد إلى البيت وهو على هذه الحالة، بل إلى الأسوأ وفي كل مرة يلعن الساعة التي رآها فيها، وأحست زوجته أن هناك خطباً ما، لذلك لم تحاول الاقتراب منه وتركته لشأنه مجتنبة أي تدخل قد تلقى منه ما لا يحمد عقباه ولا يسر.

حتى العاشرة مساءاً بعدما ملّ الاتصال بها وركن جهاز النقال جانباً، إذ سمع رنين هاتفه، وعندما ألتقطه وجد رقمها، فخرج إلى خارج البيت وفتح الخط وبدون مقدمات خاطبها: أين كنتِ.؟

ابتسام، بنوع من المسكنة: أعذرني أغلقت الجهاز، مخافة اتصالك بي وأنا عند خالتي.

سرمد، بعصبية: طيلة هذه الفترة.؟

ابتسام بطريقتها المعهودة من الهدوء والسكون: نعم، تواً أوصلوني إلى البيت بسيارتهم.

سرمد، لم يهدأ بعد: كدت أجن، اتصلت بك ولا مائة مرة.

ابتسام، دخول سريع: أخبروني إنك أصبحت متشدداً في الدين.

سرمد: ماذا.؟ كذبوا عليك، فأنا معتدل جداً، ولو كنت كما أخبروك لما اتصلت بك، بل وجننت عليك.

ابتسام: كان في ودي أن التقيك سابقاً، حتى قبل أن يموت زوجي لأعتذر منك، أشعر باني قسوت عليك، لكن صدقني لم يكن الأمر بيدي، كان خارج إرادتي.

سرمد، بكبرياء وشموخ: لا عليك.. لا أحب أن أقلب أوراق الماضي، فكلانا نال نصيبه.

ابتسام، بنفس الهدوء: أفهم من كلامك، أنك غير حانق أو حاقد عليّ، ولم تحمل أية ضغينة ضدي.

سرمد: أبداً، بل العكس هو الصحيح، فقد أثرت بي حمية الماضي، ولَكَم أنا طامع بأن أعيد أمجادنا القديمة.

ابتسام: لكن ذلك محال، فظروفنا اليوم لم تكن مثل الظروف السابقة، وكلانا له عائلة يسعى جاداً لأجلها، فضلاً عن أن هناك معوقات كثيرة لا حصر لها.

سرمد متنرفزا: لا أحب أن أسمع كلمة عوائل والتزامات، لابد أن نعيش حياتنا ونتمتع بها.

ابتسام: هي ليست حياتنا وحدنا، هناك من يشاركنا، وله علينا حق الرعاية.

وصمتت قليلاً ثم أردفت قائلة: دعنا نبقى أصدقاء.

سرمد، مستنكرا: كلمة الأصدقاء هي لعبة الجامعيين والموظفين، فلا أحبذ أن أخادع نفسي بهذه المفردات الجافة، أنا أعشقك بل متيم بك، ولي عليك حقٌ سابق، بل ودين في رقبتك، وحسبي أنك تعرفين ذلك، بل وتصرحين به.

قاطعته ابتسام: أنا لا أنكر ما ارتكبته معك من حماقة، وان كان وراءها من وراءها، وأن كنت مشتركة فيها، لذا ليس عليّ أن أدفع ديون الماضي على حساب أبنائي وشرفي.

سرمد، محتالا: ومن قال أنى سأسلبك شرفكِ أو أبعدك عن أبنائك.

ابتسام: إذا كنت تقول الزواج فهذا من المحال لأكثر من سبب وسبب.

سرمد، جادا: هناك الكثير من الطرق المللتوية.

ابتسام، ممانعة بشدة: لا تقل ذلك، فلست من إياهن.!

سرمد: أعني الطرق الشرعية.

ابتسام برزانة وثبات: دعني أوفر عليك الوقت، وأقول لك بجدية، أن ما تبتغيه وتطلبه ليس عندي، والأحرى أن تفتش عليه في مكان آخر.

شعر سرمد بخيبة أمل، طالما كان موقفه معها يواجه انتكاسات متتالية، وانه مصرٌ على أن يتوغل في العمق

ويثأر لنفسه، ما أضطره إلى رسم خطوط جديدة قد تكون أكثر جدية ونفعاً، بقوله متذللا: أنا لا أستطيع أن أتركك ، وسأبحث عنك في كل مكان، أتبعك حيثما تكونين، أنت فتحت عليّ باباً ما كدت لأغلقه طيلة الأعوام الفائتة، باب الهوى والذكريات المثقلة بالحب، ولست ممن يغلق أبواب الرحمة، فحاولي أن نلتقي وتجمعنا المحبة من جديد، نعيش ما بقي من أعمارنا متحابين، لربما أنا عندي امرأة أستطيع أن أستفرغ عندها لواعجي وهمومي، لكنك بأمس الحاجة لمن يقف إلى جانبك ويمسد على شعرك ويعيد الحياة لجسدك المتعب الذي غمرته سنون الإهمال...

وما كاد ليكمل حديثه حتى انقطع الخط وتعلق من جديد، بين يأس واستحالة، وأمل بعيد المنال.

ظن أن رصيدها قد انتهى بسبب مدة المكالمة الطويلة، أو أن هناك من يضايقها من عائلتها، أو أنها بحاجة إلى وقت كافٍ للتفكير في عروضه، خاصةً أن جميع مطالبه باتت معلومة وهي لا تتعدى المتعة، حتى كلام الحب المنمق لا يتجاوز أهداف الرغبة الجامحة الذي تجذبه اتجاهها، وبالتالي يظل إحساسه لا يفارق الخسارة، لأنه يخوض معركة مع خصم عنيد، سبق وان شهد مقاومته، لكنه يأمل أن تكون الظروف قد أضعفت قواها وقهقرت جحافل غلائها واستعلائها، لكن

ما حدث اليوم لا يفرق عن الصدمة، فهي ما زالت كالطود الشامخ، وان كان مجرد تظاهر واحتيال، لكنه لم يلمس منها هزالة موقف أو ركاكة قول، بالتالي كلما فكر ملياً في تعامله معها وموقفه إزائها، كان يجد نفسه مهزوزاً، إذا لم يكن مهزوماً بالأصل، لذلك لم يجد سوى الوسادة مدفناً لأوجاع الرأس ونوبات الصداع والتفكير المضني، التي تربو بالالم وبالقرب منه زوجته التي علا شخيرها وهي تغط بنوم عميق.

وفي اليوم التالي بكّر سرمد إلى عمله وبدا اتصالاته الملحة مع ابتسام دون أن يحصل على أي جواب ففي كل مرة يكون الجواب من قبل الحاسب الآلي (الجهاز مغلق أو خارج منطقة التغطية).

لكنه شك فيما إذا كانت الشبكة ضعيفة كالعادة، وراح مصراً على أن يكلمها وان كلفه الأمر ما قد يكلفه، هو لا يدري ما يريده بالضبط سوى أن يكلمها ويستميلها إليه، ولعله يحصل على أمل بلقائها وبعدها لكل حادث حديث.

لم ييأس بعد وهو يبرر إغلاق هاتفها بسبب خلل ما طرأ على جهازها أو أنها في مكان ما لا يسمح لها بفتح الهاتف.

وأستمر على هذه الحالة عشرات المرات وفي أوقات متفاوتة، بين لحظة البيع ولحظة الصمت، وما إلى ذلك من حسبات تقيّد الذهن بلجام الانكسار.

لكنه ظل مصراً على أن يؤذيها بكثرة الاتصالات، ولابد أن تراجع حساباتها وتعيد النظر في مواقفها، على أقل تقدير تبادره ولو في كلمة.

وفعلاً تحقق ما يصبو إليه أخيراً، بعدما فتحت الخط معه، ومن دون مقدمات كررت جملتها الأخيرة وقرارها الخطير: أن ما تطلبه ليس عندي.

سرمد، استشاط غضبا: لكن لماذا طرقتِ بابي، لماذا قلبتِ كل حياتي رأساً على عقب.؟

ابتسام، بهدوء وانكسار: جئت أعتذر إليك، أشعر أن الله انتقم لك مني، لذلك ترملت مبكراً.

سرمد، بحمق: ولكني لا أسامحك.

ابتسام، بنفس الهدوء: أسأل الله أن يسامحني.

سرمد، ضاقت به السبل والمنافذ: ولكني أحبك وأتمنى...

قاطعته ابتسام: لا تتمن كثيراً، فأنا امرأة سبق وان تبطرت على نعمتي وتعافيت على رزقي وجرى ما جرى، ولذلك أتحمل اليوم وزر أعمالي.

سرمد، باحتيال: ولكني أمد يدي إليك...

ابتسام تقاطعه أيضا: إذا كنت صادقاً فعلاً فمدّ يديك إلي بالعفو، لا أطمع بغير ذلك، لعلها بداية المغفرة.

**

مضت أيام وليال وسرمد ما زال يعاني مخلفات هذا اللقاء المفاجئ، الذي انثال عليه بالأوجاع والأشجان، وهو لم يصدق إذا كان موقفه منها موقف المنتصر الذي ما زال الخصم يرجو منه العفو والسماح، أو على العكس فهو المهزوم الذي يتمنى أن تغور به الأرض وتبتلعه في لججها.

وشيئاً فشيئاً بدا يتعافى ويعاود حياته بشكل أفضل من السابق، خاصةً انه ما زال يحس أن الأبواب مفتوحة أمامه ليعيش حياته الجميلة بعيداً عن الضغائن القديمة والانتقام الدافع الرئيس الذي كان يسيطر عليه في علاقته مع ابتسام.

ليس من طبيعته أن يخفي الآثار التي يتعرض لها، لكن هذه الحكاية حكاها بشكل مقتضب وللخاصة جداً، فبدت أراءهم مختلفة، ولأنه أختار نخبة من الأصدقاء الصالحين، كانت آراؤهم كلها اشبه ما تكون بالنصائح المجانية، وان الله قد ثأر له منهن ومن كيدهن؛ على قول أحدهم (يا غافلين لكم الله).

وبينما هو يستمع لأقوالهم، إذا بامرأة قد غطت نصف وجهها بالعباءة وهي تتعثر بخطواتها الحثيثة، قد لمح سرمد النصف الظاهر منها، ما دعا إلى إثارتهِ سريعاً، وراح يصرخ بصوت جهوري: ما هذا السحر، ملاك والله ملاك.

أصدقائه لم يستغربوا ما بدر منه، كونهم يعرفون طباعه، فهو يطرب ويهرج لرؤية كل جميل، لكنهم استغربوا كيف لمح جمالها ولم يبن منها سوى سوادة وجزء من الوجه.

لكنه أقسم انه لمح نصف الوجه الذي يشع حسناً وفتوناً، فالعينان زرقاوان، والوجنتان موردتان، والأهداب كالنبال الموجهة إلى صدر العدو، والشفتان اللتان أن قبلتهما عمراً كاملاً لا تمل ولا تكل كأنك ترشف من معين الشهد.

- ويحك العالم تكبر، وأنت تصغر.

قالها أحد الأصدقاء توبيخاً أشبه بالمديح.

سرمد، جازما: كلكم يستوقفكم الجمال، بل ويذهلكم ويجعلكم تنسون أنفسكم وأهليكم.

أحد الأصدقاء، ملاطفا: قُبحت من صديق عاق، تفضح أصدقاءك عند أول مسائلة.

فضحك الجميع لصدق ذلك التعبير الذي أبدى مصداقية مطلقة لدى عامة الناس، فلا أحد يستطيع أن

يقاوم وهج الجمال، لكونه فتنة وسحر يا للهول هاتان النعتان، بل أحياناً ينقلب ليصبح كارثة على الأمة بل وباء على من يجنيه، فهو يقطع تلابيب الأفئدة ويكسر عرى النفوس، ويضفي هاجس الموت والحياة في تفاوت اللحظات على النفس البشرية.

ولم يلبث إلا برهة قصيرة، وإذا بامرأتين أخذتا السوق جيئة وذهابا، وهن يثرثرا بصوت عالٍ، لغط غير منقطع، يخلفا ورائهما غبار سحسحة المشي والانزعاج ما ينعكس عليهما سلباً في محافل الرجال، لكنهما غير مباليتين ولا مكترثتين بما يسمعا من ذم وتذمر من المارة وأصحاب الدكاكين.

وليس من العادة أن يبقى سرمد ساكتاً لا يحرك ساكناً، وهو يراهما من نوع المرأة المستقبحة، التي تتكلم بلا سكوت ولا انضباط، المرأة الملسونة التي يمقتها الرجال والأهل وكل من له صلة بها، المرأة التي تحارب على أن تأخذ حقها بيديها ولسانها السليط، هي امرأة مسترجلة، عديمة الأنوثة، تُسَب ولا تُحَب، وهي عرضة للطعن والتقريع دون سواها من سائر النساء.

الحق أن لا أحد يرحم المرأة ما لم تفكر هي برحمة نفسها، وتخرج من قوقعة ما يسمى بالتحرر والإباحية، تلك الشعارات الفاسدة والرخيصة التي لوثوا بها عقل المرأة، فتجدها مصطفة في كل الطوابير، لسانها يعلو

كل الألسنة، مستعدة إلى أن تتكلم معك بأنواع الألفاظ السوقية والنابية التي لم تعهدها، فهذه المرأة بالذات هي خريجة الأسواق ومواطن الاستقباح ولا أظنها إلا أن تلتحق في مواكب الدعارة عاجلاً أم آجلاً، فلا أهل يطيقونها ولا زوج يتمناها، والعِشرة معها نكد بنكد.

ندد أحد أصدقائه بهذه الانطباعات الظالمة للمرأة على حد قوله: منهن المغصوبة حقها ومنهن المظلومة، ومنهن من تكالبت عليها الذئاب.

سرمد، بتروٍ: هدوء المرأة بحد ذاته جمال، ودموعها سلاح فتاك، فهي أبداً ليست بحاجة إلى الثرثرة واللغط، حتى أن كانت ظروفها ما كانت، فالرجال ينتهون إلى المرأة الهادئة الرزنة الخلوقة المحتشمة، بعكس تلك الثرثارة اللعوب التي تتحاشاها الرجال ويخافون الوقوع في فخاخها، فهي متمكنة إلى أن تجعلك أنت المسارع لنجدتها إلى خصم لها بل وسالب حقها، دون أن تستطيع الدفاع عن نفسك، وكثيراً ما حدث ذلك، وتورطت أشراف وراء نجدة بعض الساقطات.

قاطعه أحد أصدقائه بقوله: أدينك من فمك، الساقطات وحدهن من يتمتعن بهذه الصفات.

استأذنوه بالانصراف وشكروا له حسن الضيافة، وأوصوه بان يعدل عن آرائه المتطرفة، فالمرأة لم تكن الجنس الناعم فحسب، بل هي الجنس الضعيف المسكين

اللـواتي يعـانين آلاف المظـالم فـي زمـن كُتِـب علـى مجتمعنـا أن يُقبـر بالحيـاة، وان يُـدفن تحـت أنقـاض السياسة الفاسدة، وعصابات البلطجـة التـي اشـترك بهـا المتـآمر الحاقـد والقريـب الجاحـد ودول ومخططـات واهداف وصوليين، فظل الشعب الضحية الكبرى علـى طول المشوار.

بيد أن سرمد موقن تماماً بان مـا وقـع علـى المجتمـع من حيف وظلم هو سبب رئيس في تغييره إلى الأسوأ.

لذلك حبذ أن يختبئ وراء حب ينسيه مـا علـق بذهنـه مـن بـراثن الإرهـاب العـالمي الـذي ألتـف حـول رقـاب العالم بأسره.

وما زال سرمد يفكر بين خبايا الذكريات عمـن يشـفع له ويبعده ولو لوقت قصير عن واقعه المرير الذي يسبح به البلد في حمامات الدم.

سـرمد يكـره أن يتوغـل بمثـل هـذه الاصـطلاحات، ويعزف عن الولوج في مفردات الـدمار اليـومي، وكـان يأمـل أن يسـافر إلـى ماليزيـا ضـمن العقـد المبـرم بـين وزارة النقل والمواصلات ووزارة التجارة لتكفل الأولى بنقـل مفـردات البطاقـة التموينيـة، وكـان سـرمد ضـمن الأسماء المرشحة لهذه السفرة، وبينما هو يتمنـى بشـوق أن يخرج من هذه الأجواء ليعيش جواً طالما عاشـه فـي أوج شبابه واندفاعه وحماسه، لكنـه كـان بالتـالي متأكـداً

أن مسألة السفر قد تطول لأسباب كثيرة كتعثر الأسطول البحري التجاري بعد حرب خليج الثانية، وتبعثر سفنه هنا وهناك، علاوة على أن معظم السفن التجارية لم تخضع للصيانة.

ظل سرمد مستعداً لأول برقية تصله، فليس هناك أية عوارض أو معوقات تمنعه من ذلك.

وبينما الوقت يمضي سريعاً، إذ تنفتح عليه أبواب العشق من جديد، عشق من النوع الذي يصبو له هذه المرة، هو يختلف عن كل تجاربه السابقة، يمكن أن يكون عشق ولا بالأحلام، وإليكم التفاصيل:

جاء رجل وأستأجر سرمد للعمل عنده في تأسيس كهربائيات الطابق العلوي من بيته، وبدا النقاش كبادئ بدء عن قيمة التعامل التي تقطع على عدد النقاط الكهربائية، بيد أخذ صاحب البيت يلح على تخفيض أجور العمل، لان غرضه من ذلك هو عمل أنساني نبيل لإيواء أهل زوجته المشردين من بغداد بسبب الاحداث الطائفية العصيبة التي تمر بها العاصمة، وبعض مناطق الوسط.

وتمنى على سرمد أن يساهم ولو بتخفيض يسير من الأجور، كونه هو الآخر كان منهكاً مادياً.

استجاب سرمد لذلك بروح ملؤها القبول والرضا.

وكان من صاحب البيت أن شكره وقدم امتنانه الكبير مقدماً.

وبدا سرمد العمل في جرد المواد المطلوبة ونوعية المادة كونها تختلف من صناعة إلى صناعة أخرى.

كما لاحظ سرمد وضع الطابق العلوي المتروك والمهجور الذي لم يكمل بناؤه بعد، فهو مجرد من الكاشي والأبواب وزجاج الشبابيك والكهرباء كاملة.

وفي اليوم التالي جلب سرمد جميع المواد المطلوبة، بالإضافة إلى صندوق العدة والسلم والمثقب الكهربائي والمستلزمات الأخرى.

وتفاجئ سرمد لعدم وجود صاحب البيت، كون ربة المنزل هي من فتحت الباب له، استقبلته واعتذرت بالنيابة عن زوجها الذي توجه إلى باب رزقه.

كانت المرأة جميلة جداً وهي بنت الثلاثين تقريباً، فحاول سرمد أن يغض النظر عنها، فهو موجوع كثير التأوه كلما رأى جميلة ما، وأخذته الشكوك والأماني الى حيث لا تشتهي السفن، لكنه تعوذ بالله من شيطان نفسه الأمارة بالسوء، وأخذ يحمل أغراضه شيئاً فشيئاً بعدما عرضت عليه المساعدة، لكنه أبى ذلك، لان أغراضه أثقل من أن تحملها امرأة.

وبعد الانتهاء من تصعيد مستلزماته للطابق العلوي، جلس قليلاً وولع سيجارته، وهو ينظر إلى جدران الغرفة وكيفية مد الأسلاك.

بدا عمله وهو يدندن بأغانٍ عراقية لا على التعيين، يتنقل من نخل السماوة يكَول إلى يا صياد السمك، وراح يشدو مترنماً بـ (غفا رسمك بعيني من الصبا لليوم وطيوفك طيوفي بصحوتي والنوم) ولم يحس ألا بشخوص امرأتين بالقرب منه، الأولى تحمل قدح الشاي من النوع الكبير الذي أعتاد عليه العراقيون مؤخراً، والثانية تحمل وعاء الماء البارد، سلما عليه بأجمل تحية.

فزّ مرعوباً كاد أن يسقط من سلمه (السيباية) وما أن أستعاد ثباته، وأستقر على السلم، وهو يتفحص ذلك الوجه المتلألئ وتلك البسمة الصارخة، وذاك الملبس الوردي ذي الفتحتين الجانبيتين التي تعلو الركبة قليلا، الذي ينم عن انقضاء ليلة وردية، وكانت صدرية الثوب عريضة ما يظهر من خلالها خيوط الغلالة الذهبية، وتلك القلادة التي تشع نوراً يكاد أن يخبو بريقها في بريق الصدر الممتلئ، والرقبة العنقاء التي لا يقوى على تسلقها إلا صاحبها الشرعي، فارعة الطول، متروسة البنية، هيفاء البطن، ممشوقة الساقين، بارزة الترائب، كل ما فيها جذاب بل وساحر، أضعفت قواه بل

وخارت إلى درجة الانهيار، ونزل السلم، وأخذ الشاي من زوجة رب المنزل، وعينه تحملق للمرأة الثانية التي تزدان فتوناً، ما حدا بها إلى ترك الماء على طاولة متربة أشبه بالمهملة، خاطبته وهي مبتسمة: يا أخي ردّ السلام.

نسي سرمد أن يرد السلام أو ينبس ببنت شفة، وهو يتحرق شوقاً من الداخل حد الانفجار، فأجابها بهدوء: وعليكم السلام، مرحباً بكما.

صاحبة المنزل، تقدم أختها للتعارف: أختي أم احمد (لمياء) من بغداد.

سرمد، من دون تحفظات: من بغداد أو من باريس.؟

لمياء، ضاحكة: تخالني أشبه الفرنسيات.؟

سرمد، بكل جرأة: بل وأجمل.

لمياء أضحكتها هذه الجرأة وربما أضحكها المديح، كون المرأة مغرورة بطبعها، وتهزها النعوت التي تشيد بها، بينما ظلت أختها مستغربة من مجاملة سرمد المتعجلة، وبان على وجهها الخوف من نواياه، خاصة أن البيت خالٍ من الرجال وهما الوحيدتان به، وان كانت لمياء جسورة بل وشرسة إلى حد ما، أفضل بكثير من أختها (الهام)، كونها أكبر سناً وأكثر تجربة في الحياة.

والـذي أسـاء (الهـام) أكثـر هـو عـدم احتـرام حرمـة البيت، ما دعاها إلـى أن تصـيح بأختهـا للنـزول وتركـه يعمل، فان بقائهما بالقرب منه يعني قعـوده عـن العمـل، ولربما يستلذ لهذا البقاء، واحتمال غير بعيد أن يتطـاول في الكلام.

لكن لمياء رفضت الانصـراف وحبـذت البقـاء قلـيلاً، فهي تحب أن تشغل وقتها المليء بالفراغ الممل.

وصعد سرمد (سيبايه) العمل، وهو يأمل أن لا تفارقه تلك الحورية التي سقطت عليه من السماء، نعم أن لمياء جميلـة، لكـن مـا جمّلهـا أكثـر نـوازع سـرمد وشـارداته الذهنية وركاكـة فـؤاده، بـل هزائمـه المسـتمرة فـي هـذا المجال.

أخذت لمياء تناوشه بعض مـا يحتـاج، كونـه متسـمراً بالسلم وجهه للحائط وظهره عليها، وقلبـه ينظرهـا بكـل تفاصيلها، وكان كلامها يتسلل لكل أحاسيسه، بل ويهـيج كل مشاعره وينساب مع تدفق الدم.

لكنهـا امـرأة علـى ذمـة زوج، هـذا مـا كـان يتوقعـه سرمد، وهو ما لا يتمناه، كونه سمع الكنية، وظل يتمنى أن يخوض غمار تجربة عشـقية جديـدة، لكونهـا مغريـة جداً، إلا أنه استرجع نفسه قلـيلاً كـون هـذا العمـل يمثـل بداخله أعلى درجات الانحطاط، ما دعا إلى أن يبادرهـا بالسؤال: أين زوجك.؟ أعني هل مازال في بغداد.؟

لمياء، نظرات مبعثرة وسكوت قصير: إذا كنت تعني طليقي، فهو في بغداد.

سرمد متلهفا: تعنين مطلقة.؟

لمياء: وغير مرتبطة حالياً.

شعر سرمد بفرحة عارمة ونزل من سلمه، وأقفل راجعاً ليعتليه من جديد دون أن يدري ما يفعل، لحظة في قمة السعادة، جال في خاطره عدة أفكار، وراح يعتقد جازماً بان لمياء هي مرسال الحب الحقيقي لقلبه الولهان المتعطش لان يخوض عالماً آخر تملؤه النشوة والاندفاع.

حتى البدايات العشقية التي كثيراً ما تكون صعبة بل ومتعثرة وقد تأتي بغير اوانها، ما كان سرمد ليواجه صعوبة قط في هذه المشكلة، فدائماً ما كانت بداياته يسيرة، لكن نهاياته ما كانت لتحظى بالتوفيق.

لمياء تنظر إلى سرمد، وهي ترمق حركاته اللا إرادية، بل وهو يتصرف بلا هدف، ما حدا بها إلى أن تكلمه: ما بك، تتصرف كمن يعبث بلا شعور.؟

سرمد: لا.. لا كل ما في الأمر، قد نسيت بعض المستلزمات.

لمياء: ها.. ولكني أراك متوتراً، فهل المطلقات هن سيئات عندك إلى هذه الدرجة.؟

سرمد، معتذرا: العفو، أبداً لا أقصد ذلك، ولكني أصارحك بشيءٍ ما، حرياً بك أن تعرفيه اليوم قبل الغد.

لمياء، تهز رأسها استفسارا: ماذا.؟!

سرمد، بشيءٍ من البراءة: أحس، ولا ضير فيما أحس، أنك قريبة على قلبي، وكأنني التقيتك في عالم آخر، وكأني على موعد مع القدر.

لمياء على وجهها بسمة تملؤها العجب: ولكنك لا تعرفني، ولم ترني ألا دقائق معدودة، ثم هزت يدها قائلة: أن ما يختلجك من أحاسيس، هي بلا شك مراهقة متأخرة، أو أنك لعوبٌ محتال، أو على الأرجح صياد غشيم.

سرمد، بنوع من الاستكانة: أتمنى أن لا تستعجلي بقراراتك الجائرة ضدي.

لمياء، مستفهمة: أنا المتعجلة أم أنت، بهذه السرعة تخاطب امرأة لا تعرفها وتريد أن تمشكلها بعلاقة وأنت لم ترها أكثر من ربع ساعة، والله أنى لمستغربة جداً.

سرمد، يشق الطريق إليها: سافرت كثيرا، إلى معظم بلدان العالم، وتغربت وتهجرت، لكني لم أحس بما أحسه اليوم اتجاهك، رغم أن هناك الظروف متاحة، والعلاقات متبادلة ووليدة لحظات لا أكثر.

لمياء، استوقفها الأمر: إلى أين سافرت.؟

سرمد، بإسهاب مخلوط بين الكذب والصدق: اغلب بلدان العالم، تايلاند، فلبين، ماليزيا، إندونيسيا، بروناي، سنغافورة، اليابان، الدول الاشتراكية غرب أوربا كلها تقريبا، إيطاليا حدث بلا حرج بلجيكا فرنسا النمسا المجر وكذلك أمريكا اللاتينية، تشيلي، بروغواي، سلفا دور، كوبا، مكسيك، والبرازيل فهو ملتقانا الدائم، أما الدول الأفريقية فالكثير من الدول والمناطق التي لم تُعرَف أسماءها حتى الآن وكذلك الدول العربية.

لمياء، مستفهمة: سياحة.؟

سرمد: لا بحكم عملي.

ـ دبلوماسي، مترجم.؟

ـ لا.. لا، بحار

ـ تجيد الإنكليزية

ـ كلا، ألمُّ ببعض المفردات المتداولة، انكَليزية، روسية، أسبانية.

ـ ما هو تحصيلك الدراسي؟!

ـ إعدادية

ـ هواياتك

ـ أمارس الكثير من الهوايات، لكن أهمها السفر، المطالعة، والشعر بشكل خاص

ـ بما في ذلك الغزل.؟! قالتها وهي تضحك.

سرمد، يدافع باستماتة عن نفسه: الغزل ليس هواية، بل هو موهبة وسمة محمودة.

أما صفاتي، فأنا لا أكذب ولا أتلاعب، ولا أضمر غشاً.

ضحكت لمياء وعلتها مسحة الإعجاب بقولها: لكنك متسرع، وأكيد متزوج.

ـ وما الضير في ذلك، فالزواج لا يشين الرجل، أما التسرع، فهو نابع عن إحساس فطري غير عبثي، لا يريد أن يضيع الوقت والعمر هباء بالمقدمات والمجاملات الخجولة.

ـ وان كان الأخير لا يبادلك الرأي، أو يوافقك الهوى.

ـ كلا فالخيار عائد إليه، والحياة لا تتوقف عند شخص بعينه.

ـ وهل الزواج كمطلب أساسي في علاقتك.

ـ في البداية لا..

قاطعته: ماذا.؟!

ـ دعيني أكمل، وانشد قائلا:

تعالي نعمر قلبنا بالحب
ونسكّر عما يقولون الدروب...
وعن كل الأقاويل..
المجردة من العواطف

إنها أقوال بلا قلوب.
******
لا تكذبي شعوري
فما عدت أؤمن
بالقرارات الخائفة
قسماً بتباريح أشواقي...
وهواجسي الدافئة
أنت تبادليني نفس الشعور
لكنك تغالطين القدر.

لمياء علتها مسحة الإعجاب والدهشة: وتنشد الشعر، وأي شعر، لا ينم إلا عن شخص عاشق متفان بالحب، إذا لم يكن لعوباً ومحتالاً لكني أوكد لك، أنا لست ممن تبادلك ذات الشعور.

سرمد يغتنم فرصة الإطراء: صدقيني أن كل كلمة تعبر عما في داخلي نابعة من صدق الذات وتفانيها بالحب.

لمياء بهدوء يشوبه التلكؤ: تسمح لي من دون زعل.

سرمد يؤمي برأسه بالموافقة

لمياء أردفت قائلة: أراك أشبه بالإنسان الضعيف المهزوز عاطفيا.

أحس سرمد وكأن صاعقة نزلت على رأسه فلكلامها جرح بالغ الأثر، لكنه صمد أمام الامتحان وتحدى أعصابه التي سرعان ما تنفجر، فان أي محاولة للدفاع عن الكرامة والعزة هي محاولة لنسف مشروعه العشقي الجديد التي لم تكتب له السلامة بعد.

وأخذ يروض نفسه على الهدوء بل ويرغمها على الثبات أمام أشد التحديات التي تواجهه، وبالتالي راح يبرر أقوالها، على أنها مجرد أسئلة من امرأة مغرورة بالأصل، منكسرة لا تجيد إنشاء التعابير المنمقة، وأنى لها ذلك فهي سرعان ما خسرت حياتها الزوجية لربما بسبب فلتان اللسان، دون أن يستبعد التصرفات الأخرى كأدب الحوار وما شابه.. ربما لم تكن متعلمة لدرجة تضييع حظوظها، وتضييع الفرص، أو بالأحرى أنها لم تقل ما قالت من باب الاستهانة والتصغير.

شيء ما، ما في داخله يبرر اقوالها، ويصادق عليها.. والحق أنها قالت الحقيقة التي طالما أخفاها، والإقرار بالذنب فضيلة، لكنها بالتالي تطاولت عليه، وان كان ما كان فلا بد أن تحترمه وتحترم مشاعره، فالإنسان مزيج من الأحاسيس الرقيقة والعواطف المتراكمة التي لا تقبل الخدش، فما أن يُجرح حتى يتلاشى ويندثر وينتهي ذلك الكيان، لذا ما كان بوسعها أن تفسد عليه مزاجيته الفرحة الجذلى بعالمه الجديد.

ولـم يسـتطع أن يجيبهـا بشـيء وهـو مـازال متذبـذباً متخلخلاً لا يقوى على النطق بشيء مما يختلجه، وكذلك لا يقدر على ممارسة عمله.

أعياهـا منظـره وصـمته، وشـعرت كأنهـا اقترفـت جريمة مـا، وكيـف لا وهـي قـد سـبت الهيكـل المقـدس، وحارت فيما بدا منها وهي تبحـث عـن مخـرج، بعـد أن ضاقت عليها الآفـاق بمـا رحبـت، فمـا عـادت تسـاعدها قـدماها علـى النـزول والانسـحاب السـريع مـن حلبـة المعركة.

شـدّ عزيمتـه هـو الآخـر فـي محاولـة لـربط الجـأش، وتناوش مطرقتـه وأخـذ يسـمر الأسـلاك بشـكل منـتظم، بينما تسمرت لمياء بالسلم، وهي تعتذر معللة ذلـك بأنهـا لا تعني ما تقـول أو بـالأحرى لا تعـي مـدى أثـره علـى إنسـان بادرهـا الحـب بكـل جوارحـه، فيمـا بادلتـه هـي بالإنكـار والاجحـاد: أنـا آسـفة، لا أعنـي الانتقـاص او التجريح، ربمـا... (عجـزت عـن إيجـاد اعـذار مناسـبة، وربمـا خانتهـا البديهـة ولـم تسـعفها فـي إيجـاد مخـرج سريع)

مـا كـان سـرمد ليقـدران يجيبهـا بشـيء، بعـد تلـذذه بمشاهدة موقفها الضعيف وانكسارها البيّن، وكـان بـوده أن تعتذر أكثر فأكثر حد التوسل.

وبالفعل فقد بدت منكسرة اشد الانكسار وترقرقت من عينيها دميعات موشاة بالحزن بالكاد تتعثر الخطى.

ما استعجلته بالنزول من سلمهِ ليسارع إليها ويحتضنها بقلب واله ويضمها بين ذراعيه ممسداً على رأسها، ولأول مرة وبجرأة غير إرادية استطاع أن يزرع أولى قبلاته على جبينها البراق.

وفي محاولة لكفكفة دمعاتها الماسيات التي اصطبغت بالكحل، ألا أنها أفلتت نفسها من قبضته الحديدية وسارعت بالنزول.

سرمد لم يكن ليفعل ذلك إلا تعبيراً عن حبه، ولم يخف نتائج ما قد يحدث كونه لم يقترف إثماً يعاقب عليه، وأخذ يزاول عمله، وبشكل أكثر انتظاماً ودقة.

وبعد مدة ليست بالقصيرة صعدت (الهام) صاحبة البيت متسائلة: هل ينقصك شيء، هل أنت محتاج للماء أو الشاي أو الطعام.

سرمد برجاء: احتاج إلى الشاي فقط.

الهام: حالاً.

لكن سرمد صاح بها مجددا: أين لمياء.؟

الهام، بنظرة يعلوها الريب: تحتاجها بشيء.؟

سرمد، ينفي: لا...لا، ولكني أتساءل فقط، فهذه البنت أريحية جداً.

الهام: أظنها نائمة.

وحاولت النزول ألا أنها أقفلت راجعة بقولها: بالمناسبة أنت أول رجل ينعتها بالمريحة، فهي دائماً ما تبدو كئيبة ومنزوية على ذاتها.

سرمد، يقاطعها: لِمَ ذلك.؟

الهام: منذ الطلاق وهي تشعر بالحزن والانكسار.

سرمد، ينتهز الفرصة: هل كانت تحبه إلى هذه الدرجة.؟

الهام، ساخرة: تعني زوجها، نعم ما من امرأة إلا وتحب زوجها، لكنها بالمقابل طلبت منه الطلاق كحلٍّ قاطع للخلافات المستمرة بينهما وتجنب تضييع الوقت على الفاضي.

سرمد جازما: انه الخاسر، وخسارة فادحة بدون أدنى شك.

الهام: كلنا أخبرناها بذلك، ألا إنها مصرة على عكس ما نقول.

سرمد، مستفهما: كيف ذاك.؟

الهام، وهي تجر بجسدها الرشيق للنزول: لا أحد بإمكانه معرفة ما يجول بداخلها، فضلاً عن كونها متطرفة الآراء.

نزلت الهام، وهي تفكر بمدى فضوليته وتدخله السافر بشؤون الآخرين، وبدت مرتابة من تصرفاته غير الطبيعية، وما أدهشها أكثر جرأته في الحديث

وكأنه واحد من العائلة، لكنها لم تعبأ بذلك كثيراً، كونها تدرك أن هناك الكثير من المتطفلين على هذه الشاكلة، بينما ظل سرمد عالقاً بين السماء والأرض وهو يثقب ممرات الحائط ويحفر أمكنة المفاتيح الكهربائية، وهو جاد على إنجاز الكثير، كونه متمرساً في هذا المجال، وان بدت لمياء شغله الشاغل.

وحاول الغناء مراراً، لكنه تخوّف أن يُسمع صوته، لأن صوته غير مؤهل لذاك الغناء العراقي الأصيل، ما يبدو نشازاً ومعيباً له، وانه حصر لب تفكيره في إعداد بداية مناسبة يستحوذ بها على زمام قلبها ويجعلها أسيرة هواه.

وصعد الشاي لكن هذه المرة بيد لمياء التي جلبته باندفاع بعدما حدثتها أختها بالقصة والوصف الجميل الذي كان ينشده بحقها، فضلاً عن بعض الإضافات المنمقة التي أعدتها (الهام) للتنفيس عن أختها دون قصد آخر، وان كان هناك من قصد فهي لا تعني أن تتطور العلاقة كونها لم تعرف شخص الكهربائي الطارئ، المتسرع في اغلب الأحيان.

عندما رآها سرمد نزل من سلمه ورحب بها، بل وأثنى عليها واخذ الشاي متشكراً منها، في حين حاولت لمياء تجربته وجره ورائها وهي تحاول الانسحاب عنه والنزول إلى الأسفل.

ما دعا سرمد للصراخ عليها: هه.. أين.؟

لمياء باحتيال: أساعد أختي على الغداء.

سرمد بجرأة: تعالي.. تعالي أي غداءٍ (الآن) نحن في أول الصبح.

لمياء: هي مشغولة في إعداد الفطار لك، وأنا سأقوم بتهيئة الغداء.

سرمد بشدة: أنا لا أريد أي فطار، وسكت قليلاً ثم أردف: أريدك أنتِ، ثم طأطأ رأسه بقوله: اعني أريد بقاءكِ بالقرب مني، فأنا أعاني من وحدة وفراغ و..و.

لمياء تحملق به: ما الذي تريده بالضبط.

سرمد، بسرعة: أرجوك لا تسيئي الظن بي، والله لا اقصد إلا الخير.

لمياء تستدرجه: لو أسلمنا جدلاً، بأنك لا تقصد السوء، ماذا تريد مني تحديداً.

سرمد، منشرحا: أريد الصداقة و..

لمياء بدون لف ودوران: الم تقل آنفاً أنك لا تريد الزواج.؟

سرمد مؤيدا: نعم، قلت ذلك، ولكني لم أكمل.

لمياء بشيء من التهكم: أكمل يا أخي.

سرمد، بصدق: أن الصداقة كبداية للارتباط، أعني محاولة تمهيد ومعرفة المقابل وبناء جسور الثقة والتفاهم، واتخاذ القرارات الصحيحة وقتها.

لمياء مستنكرة: وان لم تجد بها ما تريد فترميها بالشارع أو تسحقها بالأحذية.

سرمد، بهدوء: لا اصدق نظرتك المتطرفة، وأنت تشملين الجميع بقرار واحد.

لمياء تجلس القرفصاء، وقد وضعت كفيها على رأسها وكأنها تشعر بصداع ما.

سرمد، استغل الموقف ليجلس بمحاذاتها، واخذ يبادرها بالنصائح في محاولة لترويضها، والتخفيف عنها ففتح اكفها عن رأسها ورفع حنكها إلى الأعلى، ليقول: ليس هناك ما يدعو لهذا القلق والاضطراب وتلك الكآبة التي قد تتفاقم بسرعة إلى أن يصاب الإنسان بهستيريا أو خلل دماغي حد الجنون، الدنيا مجرد لحظات، تفوت سريعاً، هنيئاً لمن عرف كيف يعيشها ويغتنم الفرص فيها. (هكذا بدأها سرمد بالقوانة المشخوطة).

لكنها تدرك أن هذا مجرد كلام ليس من الواقع بشيء، وان كان ذا تأثير إيجابي، فهي ما زالت محاطة بظروف سلبية كثيرة جداً، لذلك ما أن تحاول مسايرة الواقع، تجد نفسها في دوامة وهي تقرض بأيام عمرها كما يقرض الجرذ أوراق القصب.

سرمد، أعاد الكرة عليها: اقسم أن زوجك هو الخاسر.

رفعت رأسها إليه وبضحكة مشوبة بالاستهزاء: الحق أنا الخاسرة، فهو استطاع في فترة وجيزة من وضع امرأة بين أحضانه، بينما لا أجد بين أحضاني سوى ابن أحارُ في معيشته أحياناً، فضلاً عن أني مهددة في أي لحظة شاء أن يأخذ الابن من يدي، كما أني خسرت وظيفتي، وهو في ترقية مستمرة، أنا مهجرة عن دياري مشردة وهو قابع في دياره محترم في مكانه.

وسكتت قليلاً ثم أردفت: صدقني انه لا يعنيني بشيء بمقدار ما يعنيني الظرف الذي نمر به، أنا حساسة إلى درجة أن كل العراقيين هم أهلي وكل التراب هو وطني وكل ما يصيبه من سوء يصيبني، أنا وطنية مفلسة أو في غير زمانها على أسوأ احتمال، لذلك أجدني مهووسة في حب الوطن، ابكي لبكاء كل طفل، ابكي للعامل الذي خرج للمساطر والفلكات لجلب رزقه ولم يعد من يومه سوى أشلاء مبعثرة، ربما هي أشلاؤه أو أشلاء زميل له أو شخص آخر لم يكد يعرفه في حياته، إلا انه سيتعرف عليه بذات اللحد..ابكي على كل أم ترصد مجيء ابنها أو زوجها أو حتى ابنتها العائدة من الجامعة التي قد تعود مغصوبة عن قصد أو جثة هامدة، أو بالأحرى لم تسمع أخبارها ألا بعد دفع الفدية، هذا إذا صدق الخاطفون وعودهم في أعادتها.. ابكي الطفل الذي حاروا بعلاجه، وهو في طوابير العلاج

المرشحة للخارج، هذا إذا ما استبدلوه بابن مسؤول قد يذهب للنقاهة والاستجمام.. ابكي وابكي ولا شك انه بكاء خيبة وحرمان وفقد أمل.

سرمد، بصراحة: هذا الكلام بقدر ما هو مؤلم هو غير مثمر ولم يجدِ نفعاً بل مضيعة للوقت، إذا لم يكن مضيعة للعمر بالكامل.

لمياء، باندفاع: نحن نعيش وسط مجتمع، ومجتمع سامٍ، فلسنا في غابة، لذا لابد أن نتألم ونبحث عن حلول ونفكر بجدية لإنقاذ البلد من حمامات الدم.

سرمد، ببساطة: لسنا أصحاب قرار، في حين أن صاحب القرار هو عاجز عن إتيان المفيد والناجع.

لمياء: مصيبتنا أن كل واحد منا يتنصل عن مسؤولياته ودوره في بناء المجتمع، ودائماً ما يكرر قوله ليس من شأني، القرار ليس قراري، هو أشبه ما يكون بتلقين الببغاء.

سرمد: بصراحة.. بصراحة ماذا بإمكانك أن تفعلين أو تغيرين، ولربما أنت على هذه الحالة منذ الاحتلال، هل غيرت شيئاً من السياسات.

لمياء: الحقيقة أني لم أستطع أن أغير شيئاً، ولا يمكن أن أغير شيئاً، وان بقيت إلى أمد طويل، ذلك بفضل ما تصنعون (واحد يعمل ومائة يخربون).

سرمد شعر بالملل وهو بحاجة إلى تغيير الحديث بقوله: هوّني عليك ذلك فتهون، نحن نريد شيئاً، والله يفعل ما يريد.

سكتت لمياء وهي تشعر بأنها تخوض حديثاً غير مجدٍ، وان الكثير من أقاربها وأصدقائها يتحاشوها لهذا السبب، ولربما تكونت انطباعات غير محبذة عند سرمد عنها، بمقدار ما تحاول كسب وده، وهي تبحث عن أنيس ولو لوقت قصير ينتشلها من الفراغ ووحشة الصمت.

وجد سرمد في صمتها ثغرة للولوج في داخلها لتغيير الموضوع برمته، بقوله: ذكريني هواياتك، دعينا نتعارف أكثر، نتجاذب أطراف الحديث، دعينا ننعم بالحياة تلك الهبة العظيمة التي وهبها الله للإنسان.. وهو يواصل عمله في مد أسلاك الكهرباء.. بينما كانت لمياء تتحسس صدق كلامه، فعلاً أن الحياة هبة وكرم ولطف إلهي منحه الله للإنسان، لكن عبث الإنسان بأخيه الإنسان، ضيّع فرصة التنعم بها.

استشعرت نفسها أمام بداية جديدة، عليها أن تعترف بحاجتها الماسة لمن يساعدها ويأخذ بيديها لعالم آخر مليءٌ بالحب والرحمة، لذلك عرّفت بنفسها بشكل مستفيض، قائلة: أهم هواياتي قراءة الأدب الإنكليزي،

بشكل خاص، وميالة لقراءة علم الاجتماع ودراسة المجتمع العراقي بالخصوص، محبة للسفر حدّ الموت..

يقاطعها سرمد: أين الوطنية أذن.؟!

لكن لمياء أكبر من أن تقع بمثل هذه الفخاخ: معظم الوطنيين سافروا وتشردوا في أصقاع الأرض، لكنهم ظلوا أعلاماً ورموزاً للوطنية.

سرمد، يناور مجددا: أدب إنكليزي، واجتماع عراقي أليس في ذلك من تناقض...؟

لمياء: أبداً، الأدب الإنكليزي يمثل أقصى تجارب المجتمع الغربي ما يسعني معرفة مستوى مجتمعنا تحديداً.

سرمد، مستسلماً: طبعاً بالحضيض.!

لمياء تستهجن قوله وتبدي امتعاضها وهي ترفع حاجبيها: لكل مجتمع محاسنه ومساوؤه، وفي مجتمعنا من المحاسن ما لم تجد في غيره من سائر المجتمعات، لكن أشد ما أفسده سياسات التقزيم والتقويض التي أخذت على عاتقها أبادته فكرياً واجتماعياً، مادياً ومعنوياً وحفرت في أعماقه الإحباط والانكسار.

سرمد يقطع عليها استرسالها بالكلام: أخبريني ما قصتك بالضبط.؟

استشعرت لمياء من نبرته بان كلامها لا يوافق مبتغاه، وبعيد جداً عن رغبته وهواه، وهذا الأمر لم يكن

جديداً عليها البتة، لكثرما تعرضت للنقد من أقرب المقربين منها، وأحياناً يصل بها الحال إلى العراك والخصام لأنها تخلط الأمور بعضها ببعض، وتدخل في مداخل قلّما تسلم بالخروج منها، والبعض ينعتها بأنها متقوقعة أو منغلقة على نفسها لكنها تجد رأيها في قمة السداد والصواب.

ظل سرمد يسبح فيما يسبح به العشاق في وقت كان الكل يطمح بان يعشق امرأة جميلة يصادقها أو يتزوجها، فبالتأكيد هو لا يرغب بمثل لمياء وان كانت على درجة عالية من الجمال والثقافة، لكونها تعد من المنظرين الثرثارين على حد تصوره.

لمياء قررت الانسحاب كالعادة، دون أن تجيبه لأنها تعرف مقصده بل خبرت من لهجته مدى تجهمه وضجره، وان استبدادها في رأيها لم يترك لها متسع من التفكير الجدي في المسايرة أو حتى العزوف عن ذلك التعنت الزائف التي تصر عليه وتعتمده على أن يكون الأسلوب الأمثل لرأيها.

وعندما همت لنزول أول سلمة، أسرع لها سرمد وتلّها من ذراعها وأرجعها إليه، لكنها أجابته بعصبية بعدما أفلتت ذراعها: ماذا تريد.؟

سرمد، بهدوء: تمهلي، ما بالك لمَ أنتِ متوترة.؟

لمياء لا تدري كيف تجيب وهي تشعر بتعب وإعياء ما اضطرها إلى أن تعصر صدغيها، تحاول أن تخطو في الطريق الصحيح، وتركز على بداية جيدة، تفتح لها أبواب الحظ أو على الأقل أبواب الخلاص من تراكم العقد التي عاشتها.

سرمد تعمد الإمساك بها، فهو يشعر أنها بحاجة ما إلى من يأخذ بيدها وان أبدت بعض الممانعة، إلا أن هذا لا يعبر بالضرورة عما في داخلها، بالرغم من أن هناك تصادماً بين رغبة حقيقية في مواصلة الحياة بكل ما فيها من متناقضات، وبين نظرة مثالية تركزت على القيم والمثل العليا التي اكتسبتها من ثقافات متفرقة أو لربما ثقافات مخطئة، أو متطرفة لا تُطبق على كل المجتمعات.

بادرها سرمد بقوله: تعالي نكسر طوق العزلة، تعالي نعيش معاً.

لمياء تخرج من هاوية لتلج بأخرى: بأي عنوان أعيش معك.؟

سرمد، بتماسك: أصدقاء، ثم أردف: وهل هناك شيءٌ أسمى من الصداقة.

لمياء، بفتور وضعف همة: لا أظن أن الظروف تسمح لنا بذلك.

سرمد، متفائلا: لِمَ أنتِ متشائمة، جربي..

لمياء متعجلة: أنا لا أعرفك.. حتى هذه الساعة لا اعرف اسمك.

سرمد، مسترخيً: اسأليني ما بدا لكِ.

لمياء، تعاود عصر صدغيها وجبينها وتفرك مقدمة رأسها وكأنها تشعر بدوار ما، لذلك اعتذرت منه لترتاح قليلاً، وبينما هي تهم بالنزول، إذ نادى عليها: اسمي سرمد (أبو حسن)، ولربما سأعشقك سرمداً وأبداً وأجلب لكِ حسن الطالع.

ضحكت ضحكة فاترة ما كاد يسمع حسها ونزلت.

بينما تعلّق سرمد بين أسلاكه ومساميره واخذ يطرق بحماس واستمر بعمله جاداً في الإنتاج، حتى وقت صلاة الظهر، ترك عمله وتوضأ وصلى، وبينما هو متوجه لربه، إذ صعدت الهام فرأته يصلي، أخبرته في حال انتهائه من الصلاة ينزل للغداء، وما أن فرغ من صلاته نزل على الفور، فهو جائع ومنهك، والأشد من ذلك أن يرى لمياء ويستمع لها، وعندما دخل غرفة الاستقبال تفاجئ بامرأة كبيرة السن وطفل لا يتجاوز الرابعة من عمره، بادر بالسلام، واجابته بالسلام والترحيب الحار، وأجلسته إلى سفرة الطعام.

الهام بدت التعريف: هذه أمي وهذا احمد ابن أختي لمياء.

وكان احمد قريباً منه فأخذه إليه وضمه إلى صدره وقبله على رأسه، فكان من الطفل أن تبسم وأبدى ذات التحية بقوله: شكراً عمو.

سرمد نظر الطفل نظرة إكبار وإعجاب في شكله وهندامه وتصرفاته وعذوبة ألفاظه، واخذ يقارن بينه وبين أطفاله أو عموم أطفال منطقته، فهم ملائكة في الليل أو بالأحرى في النوم فقط، وشياطين في النهار، وكيف لا يكون كذلك وهم قد ولدوا وترعرعوا في ظل عائلة عانت ويلات الحياة وقساوتها من الجدب والقحط وشظف العيش والحرمان، وكيف لهذه البراعم أن تكبر بدون تربة صالحة وماء عذب وهواء ونور، بالتالي كل هذه الإرهاصات والانطباعات الخطيرة عاشت مع الطفل، وغير بعيد أن يكبر ويهرم ويموت دون أن تتغير حياته للظروف السياسية العصيبة التي تعصف بالبلد ما تنعكس على المجتمع بكل تداعياتها.

لمياء تنز على مخيلته بعد ما كان شارد الذهن: كم سنة عمر حسن.؟

سرمد، متفاجئاً: ابني؟!

لمياء، تهز برأسها لدعم سؤالها وتأكيده.

سرمد: أثنى عشر عاماً.

لمياء، مستغربة: ما شاء الله، كبير لا يبين عليك ذلك، أم أنك متزوج مبكراً.

سرمد، زاد الطين بلة: بل عندي بنت متزوجة.

لمياء تشكك في ذلك: لا أظن ذلك، وأردفت كم عمرها؟

سرمد، مسترسلا: سبعة عشر عاماً.

لمياء، باستياء بالغ: ماذا؟! فعلاً إنكم مجانين، سبعة عشر ربيعاً، بعمر الزهور، كيف تزوجوها، الم يكن لكم رغيف خبز زائد.

سرمد، متعمداً الإثارة: وعندها طفل اسمه يحيى.

الأم، قفزت بقولها: هل تمزح يا بُني.؟

سرمد، بهدوء: لا أدري لماذا أنتم مستغربون، وما الضرر في ذلك، وهذه من تعاليم الدين الحنيف الذي ينصح بالزواج المبكر، والزواج نصف الدين، وما إلى ذلك من الأحاديث الكثيرة المتواترة بهذا الصدد.

الأم: لكن البنت لا تقوى على تحمل هذه المسؤوليات منذ الصغر، فهي لم تكن مؤهلة لذلك.

سرمد، مبررا: احتمالك خاضع للخطأ والصواب.

لمياء: أنت تعرف معنى كلمة زوجة في مثل هذه المناطق، فهي طباخة وكناسة وغسالة وخياطة ونادلة ومرضعة ومربية أطفال فاضلة، وخصم عنيد مع عمتها وحمواتها، وكيف لها أن تعيش كل هذه الأجواء وهي ضعيفة العود، والأشد من ذلك فهي سرعان ما تنكسر وتذبل وتعصف بها موجة الأمراض، التهابات

الـرحم، سـرطان الثـدي، انهيـار الأعصـاب، ضـعف النظر، هشاشة العظام، الذبول، التجاعيد، وهلم جراً.

سرمد، بهدوء: لا شك البتة بصحة قولـك، ولكـن هـذا ما اعتاد عليه السلف، ويبقـى قـدر المـرأة، فأحيانـاً تجـد الزواج يضفي عليها الريعـان والكمـال وتجـدها بأحسـن حال.

الأم، بافتخار: أن ابنتي هاتين تزوجا بسن الثلاثين.

سرمد: دائماً ما يعود الخيار للبنـت، وللظـروف فهـي قـد تكـون طالبـة جامعيـة أو موظفـة فـي عمـل مـا، مـا يجعلها تتأنى كثيراً وتمحـص عـن الـزوج الـذي ترتأيـه مناسباً لها، وسكت قليلاً وتـابع: اعـذروني مـن التطفـل، فلمياء مثلاً خير دليل على فشـل الحيـاة الزوجيـة بعـدما تزوجت عن عقل ودراية ربما لكونها..

قاطعته لمياء: لكونها ماذا.؟ أفرغ ما في جعبتك.

سرمد، معتذراً: لا أقصدكِ، مجرد محل شاهد، وإنمـا اقصد للقسمة والنصيب دور كبير في حياة المرء.

لمياء، مستهجنة ذلك: تخريف، وتسطيح للواقع.

سرمد، مستسـلما: السـكوت أفضـل مـن الجـدال غيـر المجدي.

بينما كان سرمد تثور في داخله البـراكين وكثيـر مـن الكلام الذي قد يسبب عقبة كبيرة بين إنشاء علاقة متينـة أو قد يكون السبب الـرئيس فـي تلاشـيها وانـدثارها إلـى

الأبد، لذلك انصرف إلى عمله مستأذناً الجالسين دون أن يكمل طعامه.

الهام صاحت عليه: اكمل غداءك.

سرمد: شكراً هذا حد أكلي.

لمياء: ريجيم؟!

سرمد: تقريباً.

وواصل عمله بعدما صعدت له لمياء بسلة من الفاكهة السورية التي تملأ السوق العراقية.

أحس سرمد بوقوفها وراءه، لكنه لم يكترث لها، فقد بدا منزعجاً من تصرفاتها وكأنه يخوض معركة خاسرة، أو لا يملك قابلية على ترويضها كونها صعبة الانقياد، وبات خالي الوفاض، فكل إمكانياته باتت ضعيفة وخالية وغير مقنعة، وانه لا شك يسبح في عالم الخيلاء، والأحلام العائمة في بحور التيه.

وبنوع من الانكسار كلمته لمياء: أنا آسفة، جداً آسفة.

سرمد يستمر في تجاهلها، رغم أن أرادته وكبرياءه تخالف طموحات قلبه، بل وتسير على العكس من رغباته النزاعة للهوى.

لكنها لم تيأس كونها أدركت ما يدب في قرارة نفسه من عواطف جياشة لا يمكن حبسها، وتوجهت بمحاذاة وجهه قائلة: لا تكن قاسياً فأنت طيب القلب.

سرمد، متأففا: أريد لك الحياة وتريدين قتلي.

لمياء، تتمسكن: تحملني قليلاً، أنا متعبة.
سرمد: بل أنت مغرورة ومتعجرفة.
لمياء، بتصنع: أشكرك.
سرمد، متعنت: لا شكر على واجب.
في لحظة صغيرة أفسد سرمد كل مخططاته، وهو يعجز عن وجود أي منفذ للتفاهم وأي طريق للوئام والوفاق، خاصة وهو يجد كل القواعد هشة لم تصمد أمام البناء الجديد، ووضع أي لبنة في غير مكانها فوق أساس ضعيف لم يكتب لها ألا أن تكون من الزرائب إذا لم تكن من الخرائب أصلاً.
تركت لمياء سلة الفاكهة ونزلت تجر أذيال الخيبة والانكسار، فهي لم تفلح هذه المرة بإقناع ابسط طبقات المجتمع، رغم ثقافتها وجمالها، ما بدا لها أن كل ما تملكه لم يكن سوى استعلاء وهمي نابع عن فراغ، وان دراستها في أصول المجتمع مقارنة بسائر المجتمعات، لم يكن سوى دراسة سطحية، لم توفق في العمل الميداني، كونها لم تتبع من يوميات المجتمع وواقعه المرير.. وبين الحيرة والتردد، والرغبة في إصلاح الذات والتغيير، أحست أنها بحاجة ماسة لتمضية بعض الوقت، ومعرفة المجتمع من واقعه بعيداً عن الكتب والنظريات.

إنها بحاجة إلى التنفيس والترفيه مع شخص قد يكون جيدا أو على الأقل يحترم رغبتها، لكنها لم تعرفه بعد، فلقاؤها به لم يتجاوز سوى ساعات قلائل، وان كانت ذكية إلى درجة أن تغوص في لبه وتعرف جوهره.

أخذت الشاي وصعدت له، وبعيداً عن كل تلك المزاعم الجوفاء بالكرامة والكبرياء قالت: أنا محتاجة لك، ولربما أنت كذلك.

سرمد، بعيداً عن التزمت: ربما صحيح ولكنكِ تصنعين آلاف الموانع والسدود.

لمياء: دعنا نحاول على سبيل التجربة لنذلل هذه المعوقات.

سرمد، متمثلاً بأمثال العامة: اسمع كلامك أصدقكِ، أرى أفعالك استغرب.

لمياء: هـدِّئْ اللعب، اصبر عليّ، خبرني عن عائلتك.؟

سرمد، يصفق الأكف أسفاً: عدنا لنفس الحكاية.

لمياء: لا تذهب بك المذاهب، أحب أن أتعرف عليك أكثر فأكثر.

سرمد، مستهزئا: أخاف أن تكون واحدة من أبحاثك ودراساتك المعقدة أو الصوفية.

لمياء، متأسفة: هكذا أصبحت محط سخريتك.

سرمد: أبداً، لا أعني ذلك، ولكنك حساسة أكثر من اللازم، لكن لا بأس لو تخبريني عن حياتك فكلي آذان صاغية.

لمياء متهكمة: الغريب أنك تجيب على السؤال بسؤال، المهم أني سأخبرك ما تريد، ولك الحق أن تفسر أقوالي على هواك، لكن شريطة ألا تسمعني ما أكره.

وافقها الرأي وأخذ يستمع إليها وهي تقص حكايتها معتبرة بخير الكلام ما قل ودل: كنت واحدة من بنات العوائل الميسورة مادياً، فكل عائلتنا بما فيها الأبوان يعملان في أحسن المواقع العملية، وأنا خريجة كلية اللغات وتنقلت بكذا وظيفة آخرها وزارة الدفاع قبيل سقوط النظام، كنت مؤهلة لذلك كوني حزبية ملتزمة بمبادئ الحزب، فضلاً عن ثرائي وجمالي وشهادتي وعلاقات عائلتي مع رجال الدولة.. تزوجت من مسؤول كبير في وزارة الدفاع برتبة عقيد يشرف على تطوير الأسلحة ومتابعة المشتريات ما دعا إلى توظيفي في هذا المجال لغرض ترجمة (التنادر والكتلوكات)، بعدما حاول التعرض لي مراراً وتكراراً، لكنه في كل مرة يبوء بالفشل، لم يجد غير الزواج سبيلاً يضمن له حق التمتع والتملك، فكان هدفه من الزواج المتعة ليس ألا، بعدما وجدني عصية عليه لا يقوى على الإطاحة

بي، في حين فرض علي أن اترك عملي وانضم إلى البيت.

لم أر منه سوى الطباع الغليظة والأخلاق السيئة والأنفة والحمية المستقبحة التي يتمتع بها معظم المسؤولين، وكان في كل مرة يسمعني أنواع الكلمات النابية، بما في ذلك الإساءة إلى مذهبي والانتقاص مني كوني لم انتمِ إلى ذات المذهب، لكني صبرت على مضض، خاصة بعدما أنجبت منه طفلاً، إلى أن فاض بي الكيل، وحالفني الحظ بعد سقوط النظام وانقلاب كل الموازين فرحت أهدده بأن اشتكيه إلى الأحزاب الذين يبحثون في كل زاغول عن كبار الضباط، أو أن يطلقني ويتنازل لي عن ابننا الوحيد؛ وبالكاد فعل.

(واليوم شملها التهجير الطائفي، فجاءت مع ابنها ووالدتها، على أمل أن يلتحقا جميعاً عند أختهم في هذا البيت.. ومنذ نهاية النظام وهم يصرفون أكثر مما يدخرون لذلك ابتاعت الكثير من أملاكها لتعنى بتربية الطفل، دون أن تفكر في معاودة العمل للأسباب المربكة في العاصمة بغداد من قتل واختطاف واغتصاب وما إلى ذلك.. أما أخواها فهما بالكاد قد دبرا معيشتهما ومعيشة أطفالهما رغم الظروف العصيبة.. لذلك هي لم تعتب على أحد منهما وقد عذرتهما آملةً في تغيير الأوضاع إلى الأحسن، وتعود لمزاولة عملها أو أي

عمل يقترن مع شهادتها لتواصل حياتها بشكل طبيعي دون الحاجة إلى الآخرين).

وختمت حكايتها بقولها: نعم أنا محتاجة لمن يقف بجانبي ويساعدني لا اعني مادياً بمقدار ما أنا محتاجة إلى شخص محب ذي نخوة وإباء، وصمتت.

سرمد، ينتابه شعور بين مشككٍ ومستخطٍ، فان ما يخرج من القلب يدخل القلب وهذا الكلام لم يدخل قلبه ما يدل على عدم صحته، وبين أن يستخطيها ويعدها واحدة من آلاف بل ملايين النساء اللاتي تعرضن لقسوة الحياة وتحملت صعوباتها لأجل من تعول، أو لأجل أن تعيش بعزة وشرف.

لكنه أخيراً ظل يشعر بان المرأة متعشمة به الخير وأنها قادمة صوبه راجية أن ينجدها من ماضيها وذكرياتها السوداء، فهل هو أهلٌ لذلك.؟

لكنه بادر إلى أن يوعدها ويمنيها، بل وينشدها الشعر لأنه يجد في الشعر تعبيراً صادقاً وكافياً عما يجول في خاطره، بل وفيه ما يروم من مطالبه وتحقيقاً لأهدافه فانشدها هاتفاً:

عيناك غابتا حب مسحورة
مسكونة الأشواق بالعشاق معمورة
خدك رياض زهر أوراقه مهجورة

وصدرك منطقة اصطياف..
ممنوعة السواح محظورة
وقلبك محراب رجاء..
ومحطة انتظار محذورة
كل ما فيك يجذبني إليك ...
كأنه الحب بلا شك واضح الصورة.
**
تعالي أزقُ في فيكِ قبلاتي
وأرويك من حـر أشواقي
يا أحلى شفـــة ومبســم
لو أني أجيد الرسم
لكنت أجمل لوحاتي.

كان سرمد يركز على بعض الكلمات ويرجع يرددها توكيداً، كونه يريد إيصالها للأعماق، وهو يأمل منها تحقيق غايته ومراده، بينما كانت تستمع بذوق وهي تركز بكل كلمة وحرف، ليتسنى لها الانتقاد فيما بعد بشكل موضوعي، لكن الانطباعات التي بدت على وجهها كانت انطباعات مشجعة لان يستمر سرمد في إنشاده، ويتمادى في إعادة بعض المفردات، خاصة المفردات المؤثرة التي تضرب على الوتر الحساس.
وفي النهاية سألته: قصائدك؟!

سرمد، بتباهٍ وغرور: نعم، وتابع قوله: مجرد كلمات، ما رأيك.؟

لمياء، بهدوء: لا بأس، ثم انقطعت قليلاً متفكرة ثم قالت: لكنها ليست دقيقة المعاني، وحسبي أنه مجرد هيام، و.. و.... مندفع بالطيش، وأن كان لهذه الكلمات نكهة خاصة لا يتحسسها إلا أولئك الذين استوقفتهم ذات الظروف.

كان سرمد، متأملاً إصدار قرارها الأخير، والنتيجة النهائية فهو بحاجة لرأيٍ مشجع يجعله يصقل موهبته ويشذبها ويعنى بتطويرها، لكن ما أن تتغير الآراء بالضد منه ستوقفه عن الإنشاد ولربما إلى الأبد، وبالتالي فهو لم يقتنع بكلام لمياء وهو يعبر بصدق وجرأة عما يدور في داخله ويختلج في أعماقه، بل أوصل لها ما يعتريها من ظنون خام وأشباح الوحدة، لذلك تسعى جاهدة أن تغالط أفكاره وتضعف من قيمتها في محاولة منها لزعزعة الثقة في نفسه والرجوع عن مقاصده؛ حتى بدا متفهماً لما يجول بخاطرها فان مثله لا تفوته هذه المكائد.

لمياء لم يعجبها الوضع الذي طغى الصمت على جميع جوانبه، وقد كانت أحد الأسباب الرئيسة في إعلان الحرب الباردة، طالما كان يسعى لإذابة الصقيع الذي مسح معالم الطرق، بينما كانت تتجه صوب

القطب المتجمد، وبسرعة البرق حاولت تلافي الموقف السابق وكل المواقف غير المرضية، بقولها الذي بدا على شكل طلب: لماذا تتهرب من أسئلتي، كلما سألتك عن وضعك العام تغير الموضوع وتسعى لإبعادي عن التعرف عليك، بينما عرفتك بكل تفاصيل حياتي، كمن أعطاك شيك على بياض.

ما كان سرمد ليتهرب من حقيقته أو يتنصل عن واقعه، فهو ابن خير عاش فترة طويلة ينعم بالحياة الآمنة والرغيدة، فضلاً عن انه شاب تمتع بفرص قلما حظي بها شاب آخر من بلده، بينما كانت رحى الحرب تدور وتأكل الأخضر واليابس وتقتل الحرث والنسل، كان سرمد يجوب بلدان العالم، بلداً تلو بلد، دخل البارات والبلاجات والباركات، واحتسى أنواع الاشربة المحللة والمحرمة وكذلك الأطعمة، ولبس أنواع الألبسة من مختلف الماركات، وركب البواخر واليختات وأفخم السيارات، وخالط أجمل بنات العالم ولعب بالدولارات في حين كان معظم الشعب لم ير الدولار ألا عبر شاشة السيما والتلفاز، وكان كمن أخذته العزة بالإثم، بعدما راح يتبجح ويفتخر بما صنع وانعطف على وضعه الخاص، فراح يؤكد أن حاجته للمرأة لم تكن لافتقاده الحب والحنان، وإنما هو تواق لممارسة بعض حقوقه المشروعة التي حُرم منها، علاوة على أن زوجته

مشغولة بأمور البيت وتربية الأطفال وعليها من الواجبات الجسام ما يشغلها عن الاهتمام بزوجها، والأصح أن الظروف لم تتح له فرصة ممارسة حياته الزوجية بشكل طبيعي للأسباب كثيرة، بما في ذلك مشكلة المسكن الذي يجمع كل العائلة بغرفتين فقط لا غير لذلك لم يتمكن من الاختلاء بها، فطفل يصرخ وآخر يتحرك في نومه والكهرباء مربكة لجميع العوائل فهي تنقطع بلا إذن وفي أي وقت.

أما المرأة الثانية التي يطمح بها أن تكون حليلته وخليلته، هي امرأة متفهمة لما يريد الزوج كما انه مصر على أن لا يخطأ ذلك الخطأ الكبير الذي اقترفه في موافقة الزوجة على الإنجاب المستمر التي تقصد المرأة من وراءه مشكلة الزوج وربطه بها أكثر فأكثر، بل وشل حراكه، بينما كان يعتقد هو الآخر بان الأبناء هم السند وحماة الظهر من الطعن، وأتبع سياسة كثّر أبناءك فهم عشيرتك ورفعة رأسك بين الناس، ما ظل بالتالي يكد ويكدح ويجوع ليشبعوا ويتعرى ليلبسوا دون أن يبلغ رضاهم أو يصل بهم إلى الحد المطلوب، على أمل أن يكبرون، ويعينوه، بيد أنهم ما أن يكبروا ويتزوجون، إذ سرعان ما ينسون أهاليهم، ولا يهمهم سوى إرضاء زوجاتهم اللاتي بين جنبيهم وفي أحضانهم، فهن أفضل بكثير من الأب المتزمت في

حديثه والذي ما انفك يصدر الاوامر والنواهي، أما الأم فكثيراً ما يكون تقديرها أن يشتمها الابن وينعتها بالثرثارة والفضولية، التي تتدخل فيما لا يعنيها، وإلى متى تظل الأمهات تكبس على نفوس الأبناء الذين يحاولون أن ينعمون بوقتهم وشبابهم دون تدخل أي طرف مهما كان محله من الإعراب.

لمياء فهمت منه الكثير، وتمنت هي الأخرى أن تحظى بإنسان جدير باحترامها، تبدد معه وحشة الأيام الخوالي، فهي لا تطمع بالمزيد بعدما حدا بها العمر وسار بركبه إلى غير رجعة، وبدت تخبر أن وراء سرمد شخصية جيدة بل وحنونة، وفي داخلها دبيب إيمان بصدقه وصراحته، فهي مستعدة على أن تعيش معه إذا ما وفر لها شروط العيش الكريم.

لذلك سارعته القول: هل تريدني زوجة.؟

سرمد، بارتياح: نعم، ولكن لنعيش الحب أولاً.

لمياء: وكيف ستوفق بيننا.؟

سرمد: لا أكذبك القول، أمامنا تحديات لا بد من تخطيها، ومعوقات وصعوبات لابد من تذليلها، لكن ذلك لا يمنع من بناء أساس متين ووثيق.

لمياء: أنت جاد في ذلك.؟

سرمد: كل الجدية.

لمياء: ابني احمد.!

سرمد: سأكون له أباً، بل وسأزوجه إحدى بناتي.

شعرت لمياء بسعادة عارمة وأن جميع عقدها قد تفككت لمجرد الأمل الذي استطاع سرمد أن يزرعه في نفسها بل وراح يسقيه من معين أشواقه ومناهل عطفه الروَّية.

لمياء: أكاد أشك أن ما يحدث هو واقع، أخبرني أأنا في حلم.؟

سرمد لم يشأ أن يجيبها كونها تتماهى بالواقع، وتركها تضيع بالآمال وتسبح في الأحلام، وهو يرجو أن تقفز إلى قلبه وتنضم بين ذراعيه، وبالتالي يسكن حرارة لواعجها بقبلاته التي ستعيد لها الحياة بعد موت طويل.

وتبادلا نظرات مريبة كادت أن تطفق في إثارة الشهوة حد الهيجان.

وبالكاد سارع سرمد إلى اجتذابها من زنديها وضمها إلى نفسه، وبدا تقبيلها من الفم وكأنه يرتشف الشهد من شفتيها، وما كاد أن ينفكا لولا أنفاسهما بدت تنقطع، ما دعا لمياء إلى الانسحاب قليلاً إلى الوراء، حتى اصطدمت بجدار الغرفة، بيد أخذ سرمد بالتقدم نحوها، لكنها استوقفته براحتي يديها وهي تصد هجومه الغاشم: أرجوك لا تتقدم، دعني أجر أنفاسي.

واتكأت على الجدار وهي تتنهد تنهيدات طويلة، ثم أردفت: لا أحبذ البدايات الخاطئة، إذا كنتُ قد تعلقت بكَ سريعاً، فلا تجعلني كمن يتعلق على حِبال مشنقة.

سرمد يقترب عليها وهو يوعدها: صدقيني أنا لست ممن يخون حبيبه، وأوعدكِ أن لا أتخطى حدود التقبيل.

لمياء بصوت عال: لا تقل ذلك، حتى هذا العمل هو خاطئ ومشين.

سرمد، مستأنسا: ولكنه يعبر عن عمق الحب و..

قاطعته مستنكرة: انه لا يعبر إلا عن الإسفاف بالمشروع، والخروج عن المألوف.

ثم وقفت تترجاه بنبرة ملؤها الدفء والتوسل، فهي ليست صغيرة إلى درجة الانقياد وراء عواطفها التي قد ُتلقي بها إلى التهلكة، وغير بعيد أن تلوث سمعتها إذا لم يكن بين الناس، فحتماً أنها ستسقط بنظر أهلها.

وتبدو أنها مقتنعة تماماً بان تعيش فترة حب، أو بالأحرى ما تسميه فترة تعارف، لما للأمر من أهمية بالغة في صنع علاقة وثيقة مترابطة مدروسة الجوانب، آمنة العواقب والمغبات، وان المتاح خير من عدمه، وليس هناك ثمة خيارات لترجح الأفضل عن سواه، أذن هي لا تريد أن تفرط بالعصفور الذي بين يديها مخافة أن يطير ويطير معه الخيط....

سرمد دفع به الطمع بعد أن وجد ثغرات الانكسار التي بانت على وجهها وبتروٍ خاطبها: أوافقك كل شيء لكن لا تحرميني (صناعة الحب).

لمياء تفهم استعارات مقاصده، وهي لا تحبذ هذه الطريقة من التفكير، الذي ينم عن الإساءة، فالحب الحقيقي هو حب نقي لم تلوثه أية شائبة، وان كل هذه التصرفات غير المسؤولة، لا تنم إلا عن ضيق أفق، فالوضع ما أن يبدأ بخلاف المألوف حتى يجر إلى الأسوأ، فأنك ما أن تخترق أولى الحواجز، حتى تسرع في اختراق الحاجز الثاني والثالث وهكذا دواليك.

لذلك لم تجد لمياء أمامها ألا أن توقفه وتردعه عن أي تصرف طائش، فهي ليست طفلة لتنطلي عليها مثل هذه الألاعيب، وبالتالي ليس أمامها متسع من الوقت لتصرفه في غرام الصبيان والمراهقين، ما حدا بها إلى أن تكلمه بعدما حاولت كظم غيظها كونها جادة في بداية جديدة بقولها: لنضع النقاط على الحروف، لا أوعدك بأي شيء خلاف الحب الأخوي الصادق، ولا اقبل لك أي تصرف عداه.

أحس سرمد بأنه أمام خيار ضيق المعالم، بل تفهم لوضعها وحاول تجنب إحراجها، فان كل امرأة مكانها ما كانت لتوافقه على أي شيء مما يطمح به وان كانت...

فكيف بمن تفكر بالزواج التي يتوجب عليها تصنّع العفة، وان تكون رزينة ورصينة في كل تصرفاتها، بما في ذلك انتقاءها للسؤال وأدب الجواب، وصياغتها للألفاظ وسبك العبارات المنمقة والمنضبطة في آن واحد.

لذلك أومئ لها سرمد بالموافقة، وان كان قد أعلنها تلميحاً لا تصريحاً، لكنه بلا شك أراد أن يبعدها عن الشكوك التي طالما تخيم على العلاقات غير المتكافئة أو العلاقات السريعة.

نزلت لمياء وهي تشعر بالغبطة والسعادة بالنتائج المثمرة التي استطاعت تحقيقها بوقت قصير، لكنها وقفت عند أول سلمة والتفت إليه قائلة: أنت مازلت مطلوباً إليّ بأجوبة كثيرة.

سرمد فتح ذراعيه في إشارة إلى ضمها إلى صدره، لكنها شمّرت بكفها اليمنى تودعه ونزلت.

سرمد تنّبه إلى عمله فهو لم ينجز ألا الشيء القليل، ما يعرّضه بالتالي إلى المساءلة من قبل صاحب البيت الذي هو على عجلة من أمره، لكن سرمد صرف النظر عنه، لأنه حقق إنجازاً اكبر بكثير من العمل، علاقة حب ولا بالأحلام، امرأة بها كل الصفات التي تمناها والتي طالما كان يفكر بمثلها ويسعى وراءها، علاوة على ذلك التقبيل المنعش، الذي لم يتذوقه منذ عقد ونيف

من الزمن بسبب بعض الظروف التي فُرضت عليه، حتى في شبابه لم يتذكر انه قبّل امرأة على هذا النحو من التقبيل اللذيذ، فقد سكر حباً بشفتيها الموردتين، رغم انه تمتع مع أجناس مختلفة ألا ان لذتها ذهبت في وقتها.

لكن اللذة التي شعر بها مع لمياء كانت غريبة بشكل ما كانت لتفارق مخيلته، كأنها من نوع غرائزي مهول لم يشعره بمكان آخر، ألا ابتسام تلك الخطيبة التي لم يربح من ذكراها سوى ذلك التقبيل الذي ما زال ذكراه محفوراً في المخيلة، فهو يتمنى أن يعيد تلك الأمجاد مع لمياء لكن على نحو أفضل بكثير، كون الثانية متعلمة وقد خاضت شراكة الحياة المقدسة، فهي متفهمة لرغبات الرجل الجامحة، وان كانت الأمور بعفويتها وتلقائيتها أفضل بكثير عند البعض، ألا أن سرمداً كان يفضل المرأة المثقفة جنسياً كونها غير متعبة، وتستطيع بسرعة تحقيق الرغبة المتبادلة.

استوقف سرمد عمله وهو ينظر إلى الأسلاك ونقاط الكهرباء المبعثرة هنا وهناك، وهو شارد الذهن، يتذكر موقفاً كان قد مارسه مع فتاة شرق آسيوية، كانت صغيرة العمر وكذلك الحجم، وقد أقعدها مستديرة في حضنه وراح يفرك حلمة نهدها بسبابته وإبهامه، ويمص جانب عنقها، ما أسقطها أرضاً، لم تأت هذه الذكرى عن عبث، بل جاءت وهو يتمنى ويستلهم أن

يختلي بعشيقته الجديدة لمياء فهي مؤهلة لأشياء لم يجدها عند سواها، وبالتالي ترك الأمر للوقت فهو كفيل بأن يحقق له ولو الشيء اليسير مما يطمح.

وان كان قد بدا الشوط الأول في التقبيل، فلا شك أن في الشوط الثاني أكثر من فرصة، فكيف وهو يأمل ان يخوض معركته إلى الأشواط الإضافية.

راح يصفف أغراضه، ويلملم النواعم منها، للعودة إلى البيت، كون الوقت قارب المساء، وهو يفكر في طريقة ما للالتقاء بها قبل الذهاب، بعدما فكر ملياً في إعطائها رقم نقاله، لكنه استطال غيابها ما دعاه للنزول.

سلم على أختها التي كانت قريبة من السلم، فحاولت استضافته للعشاء، لكنه تعذر ببعد طريقه ما يحتم عليه ضرورة الإسراع في العودة، ما دعا إلى شكرها.

وعندما فتح الباب الرئيس، رجع إليها متسائلا: لو سمحتي أريد رقم هاتف زوجك، مخافة حدوث أي طارئ في العمل أو تأخر عن المجيء إليكم.

ما دعا الهام أن تستمهله قليلاً لتجلب ورقة وقلماً لتكتب رقم هاتفهم.

لكن سرمد لم يشأ انتظارها، بيد سارع في إعطائها بطاقته التعريفية، فيها رقم هاتفه وعنوان محله وأسمه الثلاثي، لعله يصل بطريقة ما إلى لمياء، واستودعها وذهب.

**

بالفعل تحقق ما أمله، فقد كان حدسه في مكانه، بعدما كاد ليل أيلول أن ينتصف، وإذا برنات متقطعة تصدر من نقاله، أسرع إليه وإذا برقم غير مسجل بذاكرة هاتفه، لم يستبطئ خبره فعجل بفُتح الخط وبدون تلكؤ صاح بها: لمياء.؟

- نعم.. وهل سواي تنتظر.؟
- احتلتُ على أختك لأوصل الكارت إليك.
- وقد وصل.
- أخبريني عن شعورك اتجاهي.
- بل أخبرني عن شعورك يا شاعر.

ما كان شعور سرمد ليخفى على امرأة متعلمة تدرك ما يتسبب به عصف الحب وإعصار العواطف المكبوتة، لدى رجل يحاول أن يعيش باقي عمره في كنف امرأة تجبر انكسار خاطره، تكون ضآلته التي ينشدها بعدما ضاع منه أمل العشق، وأطبق عليه بؤس الحياة الروتينية، من العمل إلى البيت وبالعكس، بين صراخ الصغار ومطالب الكبار ظل في دوامة التيه، لا يدري يرضي من ويكسر بخاطر من، ويؤجل من

ويحقق مطلب من، فهذه الرتابة المملة والمقنعة في زمن ظروفه لا تشبه الظروف المعتادة.

وفي اليوم التالي جاء سرمد مبكراً لم يهمه العمل بمقدار ما يهمه أن يرى لمياء ويفتح معها سلسلة مواضيع متحاشياً الخوض في أمور قد تثير حصافتها وتغير رأيها فيه، على أمل أن يلقى ما يطمح منها وفي محض إرادتها وقبولها، وفي هذا اليوم بالذات تلكأ كثيراً، وكثيراً جداً في مواضيع متفرقة، حيث صار على إلمام كامل بتأريخها، ما وجد أكثر من ثغرة للتسلل وإثارة تلك القضايا المحفزة للجنس، لكنها امتنعت عن الاستماع لهذا الشطر من الحديث في محاولة منها لكبحه وإعادته لرشده دون التمادي في غيه وهو مقتصد لكل كلمة يقولها حقاً كانت أو باطلاً، صدقاً أو كذباً.

بعد كلام ممل حد الإسفاف عدل عنه للحديث عن السياسة الشغل الشاغل للمياء على عكسه تماماً الذي يتحاشى الخوض في هذا المضمار كونه خاض الكثير وعرف الأكثر في هذا المجال، بل وخبر كل النكسات التي ما كانت لتعيشها لمياء، لربما كانت قد قرأتها، لكنه وان كان لم يعش الأحداث عن كثب فهو لمسها من خلال منطقته التي أصبحت جبهة للحرب وكذلك من والديه وأقربائه وأصدقائه كل أولئك كانوا على تماس معهم، ناهيك عن أنه شاهد أحداث الحروب التي طالت

العـراق وهـو مسـافر فـي بلـدان حياديـة كانـت تنقـل الأحداث أولاً بأول عبر الأقمار الصناعية، فكـان يـرى هذه المشاهد بدقة ليميز أيهما الخاسر، وان كـان متأكـداً بان ليس في الحرب رابح وكانـت لميـاء توافقـه الـرأي، لان ليس هناك مكانـاً للانتصـار فـي وقـت هجـرت فيـه الدول العظمى والدول الحليفة كل ما يمت للحرب بصلة وراجعـت حسـاباتها فـي إنعـاش الجانـب الاقتصـادي والعمراني والعلمي.

بينما كـان العـراق يـدخل معركـة تلـو معركـة لتشـبع القيادات نزواتها المريضة على حساب الشعب المتهالـك والذي تساقط كأوراق الخريف ذبولاً واصفراراً.

كـان سـرمد فـي كـل مـرة يحـاول أن يتجنـب هـذه المواضيع لكنها أقحمته رغم انفه، خاصة وهي تتطـاول على رجـالات الـدين والساسـة الـذين جـاءوا علـى مـتن القطار الأمريكي البريطاني، ناهيك عن تميزها المقيـت بين أبناء الداخل والخارج التي باتت تشكل عقبـة كـؤود أمام تقدم البلـد وتخطـي خلافاتهـا، مـا عـاد بالتـالي لان يكـون هاجسـاً مخيفـاً ومنعطفـاً خطيـراً بـين أبنـاء البلـد الواحد، وأن أكثر ما أستاء منه سرمد هو تفضيل النظام السابق على النظام الجديد الذي يحظى بالشرعية الدولية وقبول الجماهير ويمتـاز بالديمقراطيـة ونبـذ العنـف أيـاً كانـت أشـكاله، مـا حـدا بـ سـرمد للـذهاب إلـى تعنيفهـا

وتوبيخها بشن هجوم مضاد بكل ما أوتي من قوة، وخرج الحديث عن أدب الحوار، وصار التجاوز بـ (جلاجل) كما يقال، فكلاهما عاجز عن إيصال فكرته، بعدما تحولت الأفكار إلى مناوشات تجاوزت كل التحفظات.

واستاءت لمياء أكثر وبان على وجهها علامات الزعل والغيظ، بينما كان سرمد فرحاً جذلاً بالإحساس بالتغلب عليها، وان كان لم يتغلب عليها بفكرة ما، بمقدار ما أستطاع أن يغيظها ويسخر منها ومن النظام السابق، وان كانت في كل مرة تبرر قولها بأنها لا تعني تمجيد رأس النظام، وإنما تعني تطبيق القانون؛ وأنى لذلك النظام من تطبيق القانون.؟!

لكنها من المفروض أن تقول إنه سيطر بقوة البطش والردع والاستبداد وإخافة الجميع بدون استثناء لأنه يحكم بقوة النار والحديد، وهذا خلاف القوانين السماوية والمواثيق الإنسانية التي لا تستطيع أي حكومة ديمقراطية أن تعمله أو حتى تعمل معشاره، لان تصرفاتها محسوبة وخطواتها مراقبة، وهناك برلمان ينتمي لجميع مكونات الشعب يعارض بشدة أي تصرف حكومي طائش أو أجرامي ضد أبناء الوطن الواحد.

فكان سرمد يغمز ويلمز ويتهمها بالعفلقية لإثارتها وغربلة ما يجول بخاطرها، ما يجعلها تتعصب وتنعته

بالعميل وجنود المحتل، وكان سرمد يشدد على غيظها عندما يجيبها بالفخر لهذا الانتساب، وكانت كلماته تنزل عليها كطعن السكاكين في صدرها، وأخبرته بشدة ضيقها وحنقها عليه.

لكنه حاول مساومتها في أن يوافقها الرأي إذا ما قبلها تسعاً وتسعين قبلة وواحدة أخرى وكان على عجل.

لكنها شددت عليه ورفضت أن يطولها بشيء، وقالت موبخة: كف عن التجاوز، فلا يروقني مثل هذه التصرفات الطائشة.

ما حرك أحاسيسه وراح مندفعاً لينشدها خواطره:

لو تقبليني حبيباً..
يبيع قلباً فداك
لو تقبليني أجيرا..
يحمل الخمرا ...
يوقد الجمرا..
ينام في ثناياك
لا توجعيني بالجفا..
أو ترجعيني للورا
أحببتك فوق الهوى..
صاح فؤادي في الجوى
(أنت الحبيبة).

ثم حدا به التمادي ليردف قائلا: تستحقين قبلة نقدية.. تقديراً لمواقفك القلبية الرقيقة.

وهو يلوح بيديه ويثب عليها، دون أن تترك له فرصة الاقتراب منها، وبالتالي رمته بنبال سخطها وسفهت كلماته التي لم تكن سوى ضرب من ضروب الجنون، بعدما راحت تنعته بالمخبول هذه مرة، لكنه يطرب لسماع هذه الكلمة ويمتثل بها بصنع حركات عبثية راقصة، حتى أضحكها، وأخرجها من أجواء ذلك النقاش الممجوج، ما سارع إلى تقبيلها قبلة خاطفة قد سرقها على حين غرة، كانت مثل الملح للزاد.

عرجت على النزول وهي تضحك ملتفتة عليه، طال النظر بها ورجع ليقبل الجدار الذي كان سبباً في التعرف عليها، ما دعاها إلى أن تهز يدها استنكاراً لفعلته بينما راح يغني: أمر على الديار ديار (لميا)...أقبل ذا الجدار وذا الجدارا.

**

وفي اليوم التالي جاء سرمد مبكراً كالعادة، وكان يصادف يوم الجمعة، فأستقبله صاحب البيت (زوج الهام) ورحب به ترحيباً فاتراً بسبب العمل المتلكئ الذي

لم ينجز منه سوى القليل، لكنه لم يستطع أن يدخل بالتفصيل مخافة أن يتحول الأمر إلى مشادة كلامية ومن ثم يتطور إلى الأسوأ، لكنه اكتفى بقوله: ما ظننت أن الأمر يستغرق مدة طويلة.

شعر سرمد بأستياء صاحب البيت من التأخير، كون أن هناك رجلاً غريباً في بيته، لا يحبذ أن تطول مدة العمل وذلك لينتهي من هذه المشكلة الذي بدت تزعجه بشكل كبير خاصة بالظروف الحالية التي بقيت فيها زوجته وحيدة بعد أن عادت لمياء وابنها وأمها إلى بغداد صباح اليوم، بعد أن أرسلا أخواها بمجيئهم جميعاً لتحسن الوضع نوعاً ما في بعض مناطق بغداد بعد خطة فرض القانون، الخطة الأمنية الجديدة التي أطلقها دولة رئيس الوزراء والتي حظيت بين تأييد بعض الجهات ورفض جهات أخرى، رغم أن ثمارها لاحت بالأفق وبدت بغداد تتعافى تدريجياً.

باشر سرمد عمله، على أمل أن يرى حبيبته لمياء التي سافرت دون أن تخبره، ودون أن يدري ببداية النهاية التي ستخيم على قصة حب جديدة اخترقت روحه قبل أن تخترق جسده، وحلم لم ينفك يراوده في نومه ويقظته.

وصل به الحال إلى الملل من العمل بعد أن كان صاحب المنزل برفقته طوال النهار، لا يمكن لسرمد

أن يسأله، وأنى له ذلك فقد يتحول السؤال إلى حرب شعواء تطيح بالرؤوس، فهناك الكثير من المتعصبين الذين لم يقبلوا مجرد الإشارة أو التلويح إلى أعراضهم من قريب أو بعيد، في حين أن سرمد لمس وضع صاحبه من الفظاظة والغلظة ما لا يحتمل، خاصة عندما بدأ يعمل معه كأجير للإسراع في نهاية العمل، وبدأ يمد الأسلاك ويحفر بعض أماكن نقاط الكهرباء بخطى حثيثة دون توقف.

سرمد يدرك ما عليه الأمر في رغبة صاحب المنزل التواقة لوضع نهاية سريعة لهذا العمل الذي لا يريد له الاكتمال سريعاً، كونه أحد أجمل الفرص الذهبية التي ساقها القدر إليه على طبق من ذهب، ما كان ليفرط في اغتنامها والاستحواذ عليها بالكامل.

كان يتمنى سرمد أن يرى ولو بصيص أمل، بعدما شعر باليأس من عدم التلاقي كون صاحب البيت قطع جميع الآمال، فهو لئيم لئامة، قلما رآها عند شخص آخر أو في أكثر البيوت التي عمل بها، فقد بخل بالماء وهو أهون موجود وأعز مفقود (كما يقال)، ما اضطر سرمد إلى أن يكلمه بعدما اخذ العطش منه مأخذه وهو أمر لا يطاق بل لا يصدق، أن يعمل كذا ساعة بدون ماء أو شاي أو حتى مجرد سؤال في ما إذا كان محتاجاً لشيء من هذا القبيل.

لذلك قال سرمد: إذا لم يكن عندكم ماء فأطلب لنا من الجيران.

شعر صاحب البيت بان قنبلة انفجرت بالقرب منه، واخذ يتعذر ويعلل ذلك بالتناسي كونه انشغل في العمل معه ولم يشعر بالوقت الذي اخذ يتسارع ونزل على الفور وجاء بالماء في لحظات، بعد ما كان الماء قد وضع سلفاً عند أول سلمة في وقت مبكر، قدم الماء إلى سرمد، أخذ في شربه على الفور كونه عطشاناً، لكنه سرعان ما بصق الباقي كون الماء حاراً، وهز سرمد يده وعاد لمواصلة عمله، فأستغرب صاحب المنزل من ذلك واخذ يتفحص الماء فوجده حاراً لا يمكن شربه في أجواء شهر أيلول / سبتمبر اللهاب في جنوب العراق وخاصة البصرة، المنطقة الأشد حرارة.

ونزل مرة أخرى ليجيء بماء بارد، وكانت زوجته أخبرته بان الشاي جاهز لكنه أبى ذلك موبخاً إياها، فهو لا يحتمل تضييع الوقت، وأخبرها أن تعد الغداء وتضعه في صينية ليصعد به إليه.

لكنها اعترضت على ذلك وأخبرته بأن ينزل بالرجل إلى غرفة الاستقبال ليصلي ومن ثم يتغدى، لكن اعتراضها لم يحظ بأي قبول عند رجل (شكاك) يحاول صرف الغرباء من بيته، رغم أن هؤلاء الغرباء هم

مجموعة من العمالة يختلفون على كل المنازل لتأدية مختلف الأعمال الضرورية التي تحتاجها كل البيوت.

وفعلاً صعد بالماء وبعد فترة وجيزة حمل الغداء إلى الأعلى بعد أن فرش حصيرة صغيرة.

ظلت في نفس سرمد تدب أكثر من كلمة وسبة قد علقت بلسانه، حتى بدأ ينظره شزراً بمقت واحتقار، ولهؤلاء المحترفين أكثر من طريقة لإيذاء من يجدون منه مضايقة ما، لذلك تغدى سرمد واعتذر بالانصراف فهو مرتبط بموعد خطوبة أخته، حيث افتعل الاعتذار افتعالاً.

بينما كان وجه صاحب المنزل يعطي أكثر من لون في وقت أكثر ما يترجى بان يستمر في عمله الذي أوشك على النهاية.

لكن سرمد ما كان ليتنازل عن عذره، وكيف يترك خطوبة أخته وهو أخوها الكبير وبمثابة والدها فهذا أمر مستحيل، وإنما هو جاء اليوم ليكمل جزءاً من العمل ويأخذ بعض أجوره كونه يحتاجها بمثل هذا اليوم.

اضطر صاحب البيت أن يصدق مقولته مجبراً ويأتي له ببعض الأجر وينصرف سرمد على الفور.

ما أن خرج من المنزل حتى اتصل بحبيبته لمياء، لكنه تعلم أن يسمع دائماً (الجهاز مغلق أو خارج منطقة التغطية يُرجى المحاولة فيما بعد) أن اشد ما يكرهه

المتصل هو هذا الصوت المقيت، وحاول مراراً وتكراراً ليصل إلى مبتغاه، ويعرف ما الذي حدث وان كان لا يشك البتة بان زوج أختها كان حجر عثرة في لقائها كونه رزيل رزالة ومقيت إلى درجة لا تصدق.

لم يستطع سرمد أن ينام نومة الظهيرة، وهو يجول ذهاباً وإياباً في الغرفة، حتى أن زوجته التفت إلى ذلك أكثر من مرة، لكنها استدارت وجهها وغطت بنوم عميق.

سرمد لمح تصرفات زوجته، وتوقع أن تسأله مجرد سؤال عن وضعه وتواسيه فيما هو مهموم، وان كان من غير الممكن أن يجيبها بما هو صحيح، لكنه يرى من المفروض أن تهتم به ولو بشكل عابر، ما دعاه إلى أن يهز يده سخرياً بامرأة لم تفهم الحياة، واخذ يتوعدها ـ بقلبه طبعا ـ بان يتزوج عليها الثانية ولربما الثالثة لأنها سبب رئيس في تعاسته، وجعله كالولد الطائش الذي يسعى وراء الصالحة والطالحة، لو لم تحرمه هي من الحب لما سعى وراء غيرها، واخذ يستذكر مساوئ الزوجة وحدها دون النظر إلى الإيجاب، وأن كان قد بدر منها على الأمد الطويل، هو أمر لا يغتفر، وكيف انه تحملها طيلة هذه الأعوام، ماذا لو كانت ابتسام الخطيبة الأولى، كانت بالكاد ستبدع بشكل غير طبيعي كونها متفهمة للحياة الزوجية والحب.

فهو حتى عندما يتذكر أيام خطوبته لزوجته الحالية وان كانت فترة قصيرة فهو لا يتذكر أن استوحد بها أو حتى قبلها قبلة واحدة، أو تناقش معها بأي موضوع لأنها كانت واحدة من أقاربه الذين وعدوه بان تكون المرأة المطيعة والمحافظة بل وخادمة لوالديه حسب قول أهلها.

لكن سرمد لا يهمه اليوم إلا أن تكون امرأة كأي نساء العالم تلبس له ما يشاء وتتزين بأحلى زينتها وتتعطر وتتمكيج بل وتكون له كالجواري أيام العصور الجاهلية تغني وترقص له، ولربما تشاركه السكر والسقوط، فهو لا يشك أبداً بان كل ما في المرأة مباح للرجل، وأن الشرع قد أعطى صلاحيات كبيرة له بل وإذن مطلق في أن يتمتع بلا حدود.

واستذكر في هذه اللحظة إحدى المواقف الطريفة التي حكاها له صديقه عندما استفتى أحد العلماء حول ممارساته الجنسية مع زوجته والتي سماها بممارسات شبه شاذة، فهو يصنع مع زوجته أشياء لا تكاد تصدق يستخدمها كهدف عار لجميع مآربه، فهو يستهدفها قبلاً ودبراً ويلعب على صدرها النرد مجازاً، ولم يكتف عند حد معين، بل كل شيء على الإطلاق، فكان من العالم أن أجابه على الفور: بني كيف وصلت إلى هذه

الدرجة؟! ثم أردف قائلا: أنها طريقتنا المثلى في اشارة الى حلية المداعبة.

فضحك سرمد وهو يستعيد ذلك الشريط، فخرج من غرفته لينطلق إلى فناء البيت واخرج نقاله واتصل بلمياء، وشاءت الصدف أن يسمع صوتها أخيراً.

ـ أين أنتِ، اتصل بكِ منذ الصباح.؟

ـ الخطوط هنا ضعيفة جداً، لو أن لديك خط (عراقنا) لكان أفضل بكثير.

سرمد، مستغرباً: أين أنتِ.؟

لمياء: أنا حالياً في البيت، ثم سكتت قليلاً وأردفت قائلة: وصلت عصر اليوم.

سرمد، مشدوهاً أكثر: تقصدين في بغداد.؟

لمياء: نعم، الم تدرِ، ألم تخبرك أختي.؟

سرمد، منزعجا: تعساً للحظ، لماذا ذهبتِ إلى بغداد، من قال إنها آمنة.؟

لمياء، بهدوء: لم أدر أن كانت آمنة أو لا، لكن إخويّ اخبرانا بالمجيء لهم، فتركنا البصرة على الفور، لكن يبدو لي الوضع مستقراً نوعاً ما.

سرمد، منكسراً: كيف ألقاك، وأين.؟

لمياء تشد من عزيمته: سنبقى على اتصال، ثق أنت على بالي في كل لحظة، لا أستطيع النوم إذا لم اسمع صوتك، وأقبلك على الأثير.

سرمد يحاول ممازحتها: على الأثير أو عراقنا.؟

تضحك لمياء بصوت فاتر عندما وجدت في صوت سرمد سحنة البعد وعذابات النوى فهي لم تره ألا أياماً قليلة لم يكتب لها الدوام، فهي بالتأكيد بحاجة إلى رجل ينتقل بها من وحشة الوحدة واختناقاتها إلى عالم الشراكة المقدسة، عالم الحب والاطمئنان، رغم أنها لم تقو على التصريح به مسبقاً، فأنها قادرة على أن تنقل كل أحاسيسها وما يدور في خلدها عبر الهاتف النقال كون أن المسافات بحد ذاتها كانت فاصلة تكسر أغلال الحياء وتذيب مجنزرات الخوف، فتراها تتكلم بطلاقة ما دفع سرمد إلى أن يستعيد نشاطه واخذ يشاطرها الكلام بالخط العريض كما يقال.

**

واستمر على هذه الحال لأيام طوال، تكلما فيه كل مفردات الحب والغزل بل واسمعها أعذب ما قرأ من قصائد الغزل وما كتب، مرة إنشاداً وتارة عبر (المسجات)، وكان لا يقوى على نقاشها، كونها كانت تفتح آفاقاً لم يستطع الولوج بها تعنى بالأدب الإنكليزي خاصة مقارنة بالأدب العربي وهي تشرح له مختلف وجهات النظر، حتى تكونت عنده فكرة أنها امرأة

شيوعية الفكر، لكنه بالرغم من اعتقاده ذلك، لم يشأ أن يسيء لها كونها تتمتع بثقافة عالية مع شيء غير قليل من الثقة بالنفس، كان يحبذ لو أن معشار ثقافتها عند زوجته.

وكانت كلما تتشعب معه بالحديث، لم يجد سوى الشعر وسيلة في الدفاع عن موقفه مما كتبه أو حفظه، ومن بين القصائد الأكثر حبكة التي لفتت انتباهها القصيدة التي سماها بالقصيدة العسكرية كونه استخدم اغلب المفردات العسكرية فيها وراح يتغنى بأعلى صوته منشدا:

جندتك يا قلب في حالة العشق العامة
وإعلان النفير
جندتك في سرايا إسناد..
الهاجس الكسير
تكر على أوكار الكاهن السكير
فتد في الحب وجدك..
وأعلن التطهير
فالعواطف كالزحف الفار..
تنظر الهدنة وإيقاف السعير
وأشواقنا الحيرى..
موقوتة التفجير

فالحب بلا قلب طاهر
حرب بلا تدبير.

***

جندتك يا قلب..
فلا يهزمك جور القبيلة
أعشق من تطأها عينك..
فللعين قبل القلب جولة
فلا يهجع ناظورك الليلي
فبالليل عراء الشجون
لعلك ترى في سحنات وجهها
نقاط الضعف والركة
فأبطحها أرضاً..
ولتنتهي المعركة.

**

أكثر ما يسر سرمد الدخول معها في مواضيع جنسية، كان من الدقة بمكان تركها بل وتجاهلها على الإطلاق، كونها تزيد من الإثارة رغم تلك المسافات البعيدة، والتي كثيراً ما تذكره بان يحرص على نفسه إزاء هذه المواقف المهيجة، لما لها من ردود أفعال

سلبية قادرة على زعزعة الكيانات الثابتة فكيف بالكيانات المهتزة والضعيفة، هذا إذا لم تكن خاوية من الأصل.

كان سرمد بالرغم من مصرفه الكثير للأرصدة النقدية للنقال، ألا انه كان مغموراً يحسُ بالنشوة والاندفاع عند كل مكالمة، ويشعر بالتجديد ما بين مكالمة وأخرى، كونها تنسجم مع مطالبه، فحين يطلب تقبيلها، تخبره بأنها وضعت الهاتف على الشفتين، وإذا ما ارتوى فأنها ستنزل به بين النهدين المترعتين، وان كان يفكر بمكان آخر فهي لا تمانع البتة.

وبالكاد فان سرمد يذهب به التفكير إلى مكان أبعد دون أن يسميه، ما يترك الباب مفتوحاً أمامها بجملة من الخيارات، لكنها أذكى بكثير من أن تذهب بعيداً، هي تخبر مطالب الرجال وبحثهم المضني عن خلفية المرأة، لذلك تجيبه بدون أي تلكؤ، بل وأخذت توعده وتمنيه إذا ما حالفهما الحظ وتزوجا فأنها ستجعل كل لياليه شهر عسل وكل ليلة تختلف عن الليلة السابقة.

لكن سرمد لا تفوته أن يخبرها عن قدرته الجنسية المحدودة، وانه لم يستطع الإكثار من المباشرة لأكثر من مرة في الليلة الواحدة.

ما جعلها تتقبل ذلك بروح رياضية، كونها محدودة الإمكانيات كذلك، وان كانت تحاول مجاملته بذلك، لكن

سرمد شعر بالندم لهذه الكلمة التي تثبط من عزيمته وتقلل من قوته، لكنه تراجع بالتالي ليبدي استحسانه لما قاله، فان الصراحة من خير الأمور وأهمها في مثل هذا الوضع، بالتالي عاد ليسب نفسه ويوبخها كونه بدا يتكلم بلا وعي، فقد أسكرته بخمرة كلامها حتى بات كمن يتعاطى المخدر ليلياً، فليس بمقدوره أن يخلد للنوم دون أن يخوض معها تلك النقاشات الطويلة غير المجدية.

بينما شعرت زوجته بأنه متغير عليها، وكأنه قد هجرها بالمضاجع، حتى زملائه في العمل والسوق باتوا يشعرون بأنه غنم غنيمة ما فهو لا ينفك من إرسال الرسائل النصية عبر الهاتف ليلاً ونهاراً، فضلاً عن المكالمات الطويلة والمستمرة.

وبدا يستعين بنقالات أصدقائه فيما إذا وجد أبيات شعر الدارمي الجيدة، وآخر النكات ليرسلها إليها بدون تأني، ولم يعد ينتبه لنفسه وأهله طالما يشعر بانتعاش وغبطة وحبور قد يحسد عليه.

لكنها كثيراً ما كانت تتمنى أن تخوض معه أحاديث السياسة المخجلة كونها مهتمة في كيل الذم والقذع لرجالات الدولة بدون استثناء، لكنه لم يستهوِ مثل هذه الأحاديث وان كانت بالمجان، فكيف وهو يبدد كل راتبه لأجل الاستمرار في حوار الحب الدافئ.

كـان كلمـا يعبـأ رصـيداً جديـداً للنقـال، يشـعر بالنـدم لتصـرفاته الطيشـى التـي لـم تجلـب لـه سـوى المتاعـب والخسائر دون أية فائدة ترجى.

رهن سرمد شرط تحقيق الزواج منها بالحصول على قطعة أرض أو بيت، وكون ذلك صعب المنال، إذ شعر بأنه يُعيّشها على أمل ميت، ما حدا بها هي الأخرى إلـى أن تبادره بالمساعدة حيث وعدته بعد الزواج بان تبحـث عن فرصة عمل للانتفـاع مـن مدخولـه المـادي لإيجـار بيت أو شقة لهما، كون الأمر بغاية الصعوبة.

سـرمد لا يسـعه سـوى شـكرها وانـه الرجـل وعليـه تحمـل المسـؤولية إزاء زوجتـه، وان كـان متأكـداً بأنـه يغالط نفسه، بل أن في داخله فرحاً عارماً وراء الكسـب والربح في هذه الزيجة، فلا يمكن أن يستمر الحال علـى ما هو عليه من الفقر والبـؤس، إذا مـا جـاء مـن يكشـف عنه غمة الحياة التعيسة التي يعيشها اليوم.

تعلقت لمياء به كونها تشعر بـه فـارس الأحـلام الـذي سينتشلها من مـرارة الوحـدة، خاصـةً أن المطلقـات فـي بلـدي اليـوم قلمـا يحظـنَّ بفرصـة أخـرى، ألا تلـك التـي تمتـاز بالشـهادات العليـا والوظيفـة الراقيـة التـي تلتـف حولهـا المغرضـون ـ المصـلحجية ـ بيـد أنهـا تفضـل أن تعيش حياة العزوبية على الاقتران بزوج لم يهمه سـوى أن يمدّ يده في جيبها، ويعيش على كدها وجهدها.

أما أن كانت المطلقة غير جميلة قبيحة مثلاً، فعليها أن تلزم البيت حتى الممات، إذا لم تشأ أن تنزع ثوب العفة، لربما هناك أمل في أن تنتظر الفرج، لكن الاحتمالات ضعيفة، فليس ثمة تغييرات طارئة على أوضاع مماثلة، لكن الله لا ينسى خلقه.

بدا كلاهما يتململ من صرف الوقت بلا جدوى، وأنَّ بقائهما على هذا الحال لم يكن بالبقاء المقبول، لأنه تجاوز فترة التعارف، بعدما بدت العلاقة تفتر شيئاً فشيئاً، لأنهما لم يعتمدا أساسيات تطوير العلاقة بمقدار ما ذهبا إلى ترديد القوانات المشخوطة، حتى أنهما بالرغم من فتح الحوار على مصراعيه، واستخدام كل العبارات التي لا يمكن استخدامها والتلفظ بها إلا بين الزوجين وفي خلوة من الناس.

المهم أنهما وصلا إلى حال ما عاد أحد يصدق الآخر، بعدما أوشكت الثقة أن تعدم بسبب التسويف والمماطلة أو أعدمت بالكامل، فهي تجبره على أن يأتي إلى بغداد لخطبتها لتضمن بذلك حياة زوجية ولو بعد حين، وقد صارحته أكثر من مرة في ذلك، لكنه لم يهتم لهذه المسألة، فانه مصرٌ على قراره من الزواج بها في حال تهيئة وضعه بشكل مناسب، تستحقه هذه الزوجة العشيقة، التي ستتغرب في داخل بلدها عن أهلها

ومسقط رأسها لتعيش بكنف حبيب يعيد لها البهجة الضائعة.

وكان كلما يشاور بعض أصدقائه، ينعتونه بالمجنون ويسفهون رأيه، فكيف يقدم على خطوة لم يكن مستعداً لها بأبسط المسائل، ولو انه أعدل عن رأيه وتزوجها بالطرق الملتوية كتمضية وقت ليس ألا، فان لهفة الحبيبة لهي لهفة حرمان كونها لم تتمتع بالقدر الكافي من حياتها الزوجية السابقة.

بينما كان البعض الآخر من أصدقائه يشجعونه على الالتزام بوعوده، وان لا يترك الفرصة تمر مر السحاب دون اغتنامها، فالرجل بحاجة إلى امرأتين، الأولى أم بيته وأولاده، والثانية حبيبته وأم رغبته، ولا شك أن صفات لمياء الفاتنة تشكل له الطرف الثاني.

وليس هناك ثمة ضرر، فانه عازم على الزواج من أية امرأة كانت شريطة أن تتمتع بالشروط التي يرغبها، لكن تظل المرأة التي عرفها وأختلط معها وفهمها هي أفضل بكثير من أية امرأة قد يقدم عليها بدون سابق إنذار.

تظل العقبات كثيرة تعترض طريقهما، بما في ذلك عدم قناعة الاثنين منهما في تحقيق رغبتهما، فالأول متزوج وله عائلة كبيرة وإمكانيات محدودة جداً، خاصةً فيما يتعلق بالسكن، والثانية لها طفل وأم وأخوين قد

يمانعا بشدة من رمي أختهما بالشارع، فان الاقتران من سرمد هو زواج محكوم عليه بالفشل.

ولما يئست منه في التقدم لخطبتها، بعدما أملته آمالاً كثيرة، كما وافقته على البقاء مخطوبة ولو لفترة طويلة، حتى يتمكن من تكوين نفسه، أو يدبر لهما سكناً ليعيشا معاً، وراحت إلى أكثر من ذلك في إغرائه بالتمتع بها وان يباشرها كالزوجة تماماً، طالما أن عقد القران شرعياً.

بقي سرمد أشبه بالمشلول، فهو لم يحر جواباً كافياً، وراح يتعذر بأجواء بغداد الخطيرة، وان من الصعوبة بمكان سفره إليها خالي الوفاض، وانه سيستعد قريباً للوفادة عليها، يحدوه الأمل لضمها إلى صدره واحتضانها عمراً بأكمله دون أن يستوقفه أحد.

في حين أنها لم تجد أية بادرة لتصديقه، وعادت تشكك بان كل وعوده هواء في شبك، ما جعلها تنسى تلك القصة وتعدها من بين الذكريات التافهة التي كثيراً ما تخيم بظلالها على امرأة مازال يدب بها هاجس الرجل، كما رضيت بخسارتها القليلة، دون أن تعيش آمالاً كاذبة لتخسر أكثر فأكثر.

وأخذت تناور معه مرة تغلق النقال، وتارة تمتنع عن الإجابة على رسائله معللة ذلك بوجود أخويها في البيت، بعدما بات استخدامها للنقال محل شك وارتياب،

دون أن تنقطع منه بالكامل كونها تعيش على ثمة أمل، لربما يصحح موقفه ويأتي سريعاً لأخذها من عالمها الانطوائي إلى عالم الحب والسعادة والانفتاح.

يئس سرمد هو الآخر من الوصول إلى حلول مرضية، لنفسه قبل غيره، فهو لا يحب أن يعيش على آمال مضنية، كان من المفروض أن يعجل بالخلاص منها قبل فوات الأوان ورويداً رويدا انقطع الاتصال، وماتت تلك الآمال، وذبلت ورود التلاقي وتبدد الوصال.

**

عاد سرمد وحيداً يقلب أوراقه المتهرئة، أشعاره التي لم يسمعها سوى صداه، تراجع هذه المرة تماماً عن تلك القصص الفارغة التي لم تجلب له سوى الهم والألم.

التي لم تنته بالخسائر المادية بمقدار ما أنهكته الخسائر المعنوية، مقابل أن يكسب شيئاً ضئيلاً ككلمة حب أو ترنيمة شوق أو ضحكة صبا، وان يكون قد لاح منها الطرف بقبلة أو ضمة للصدر أو عناق وديع، لكن كل ذلك كان بإمكانه أن يتنعم به مع زوجته التي شاركته شظف العيش والحرمان والتغرب، وعلى (كيف كيفه) كما يقولون.

لكن ما الجدوى من عض أصابع الندم إذا لم يكن ليتعظ من هذه التجارب.

وبينما كان جالساً على دكة باب بيته، إذ مررن ثلاث صبايا وأمهن، كانت اكبر الصبايا لم تتجاوز العشرين ربيعاً مرتدية العباءة الإسلامية (الدراعة) اضطرها برك الماء الآسنة لترفع ثوبها مخافة أن تتسخ عباءتها ما كشفت عن ساق مصقول كالعاج، أهاجه ذلك الموقف بل وأوجعه وتمنى لو يلحقها من زقاق إلى زقاق، ويضعها بين روحه ويقفل عليها الأبواب، وسرح بالتفكير بعيداً شارد الذهن مهووساً بذلك المنظر الذي سرعان ما تلاشى وغاب عن بصره، وما أن عاد إلى رشده تذكر انه للتو خرج من معركة خاسرة، وهو يلملم قواه المبعثرة ويكفكف دموع خيبته، وانشد مرتجلا: أنها بداية البداية، سأعيد أمجادي مع امرأة أخرى وأخرى وأخرى .

النهاية

٢٠٠٨

حيدر جاسم محمد
hajsm39@yahoo.com

وهو يلوح بيديه ويثب عليها، دون أن تترك له فرصة الاقتراب منها، وبالتالي رمته بنبال سخطها وسفهت كلماته التي لم تكن سوى ضرب من ضروب الجنون، بعدما راحت تنعته بالمخبول هذه مرة، لكنه يطرب لسماع هذه الكلمة ويمتثل بها بصنع حركات عبثية راقصة، حتى أضحكها، وأخرجها من أجواء ذلك النقاش الممجوج، ما سارع إلى تقبيلها قبلة خاطفة قد سرقها على حين غرة، كانت تمثل له الملح للزاد. عرجت على النزول وهي تضحك ملتفتة عليه، طال النظر بها ورجع ليقبل الجدار الذي كان سبباً في التعرف عليها، ما دعاها إلى أن تهز يدها استنكاراً لفعلته بينما راح يغني: أمر على الديار ديار(ليا)... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا.

تصميم الغلاف الفنان عباس دعير